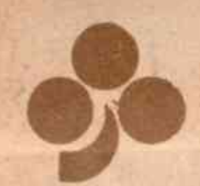


أعلام الشعر العربي الحديث

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

حسين حسن التميمي



علي الشرقي



المكتبة العالمية

علي الشرقي



علي الشرقي

تــأليف
حسين حسن التميمي

بغداد ــ ١٩٨٥

مقدمــة

للشعر العربـي قضية وقضايا منذ هلهل به عدي بن ربيعة قبل خمسة وعشرين قرناً. . ومن قضاياه:

ــ إن الشاعر، كل شاعر وشـاعرة، ومنذ بدأ الإنسانُ ينظـم القصائد، يستند فيها على الكلمات المعبرة، الموجودة في قاموس لغة قومه. . ويجعل للكلمة، اللفظة، دوراً في الحياة مؤثراً. . إيجاباً أم سلباً. . وللقصيدة دوراً في مسيرة الإنسان وتطوره:

ويبدو الأثر الإيجابـي للشعر واضحاً في الأمور التالية:

١ ــ نشر المعارف بين السامعين والقارئين.

٢ ــ الإعلام في حالةٍ تحتاج إلى الحثّ على عمل الخير أو التغيير.

٣ ــ مخاطبة الضمائر في الأطيب والأنفع.

٤ ــ هدهدة العواطف والأحاسيس الخيرة في الحب والحنو والاحترام والفضيلة. .

أما الأثر السلبـي فقد لا يتعدّى النقاط التالية:

١ ــ نشر المعارف الشريرة (الضـارة) بين النـاس. كالـدعاوى إلى

الخلاف والصدام والتنافر، أو إلى التحريض على الفتك والاعتداء والغزو والسلب والغدر..

٢ ــ الإعلام المغرِض والمدح الباطل والرثاء الكاذب والذم أو الهجو المنافق الزلفي.

٣ ــ إيقاظ راقد النوازع الأنانيّة البعيدة عن الخير والصلاح، في الضمائر والصدور..

٤ ــ خداع السامع والقارىء في تزيين المشاعر الخبيثة والرغائب الآثمة، وفي تجميل كل ما يفسد الحياة الاجتماعية «العقلانية» المنتظمة بأسلاك الحب الصافي والإخلاص الصادق مع النفس والحق، وفي القلب الذي ينكر البغض وينفر من القسوة ــ إلا في حدود.!

* * *

وإني لأضع الشعراء الإيجابيين في كفة الخير والشعراء السلبيين في كفة الشر، وأعتبر الصنف الأول قادة موّجهين وأساتذة الأجيال في كل عصر ومصر.. وأدخل الصنف الثاني السلبيين في دائرة الانحراف تسفيل المجتمع ومزيّفي الحقائق ومسمّمي الأفكار. وملّوثي عقائد الناس..

ولنحصر الصنف الأول بين قوسي (الالتزام) بالإنسانية وخيرها، ونترك بعض انحرافاتهم نحو الصنف الثاني، أحياناً قليلة، وعن خط الإنسان، خارج القوسين، تسامحاً منا وتقديراً لإيجابياتهم الأعم ــ وقد ساروا مع أكثرية الناس في مجتمعاتهم وأوطانهم، ينشرون

ـ إعلامياً ـ الدعوات المؤثرة لإبعاد حالات ضارة ودفع مظالم واقعة، واستهجانٍ لأفكار متخلّفة غير مناسبة موائمة لحياةِ عصرٍ أو مرحلة..

وكل شاعر «ثار» على فقرٍ كافر سائدٍ في قومه، أو على جهلٍ فاتكٍ فاشٍ بينهم. أو على تمزّق مؤلم بين أجزاء وطن واحد وشعب واحد.. مثل هذا الشاعر، يجب أن نعدّه من الثوّار المحاربين باليراع. وكالمناضل الثائر ـ يحارب بالمدفع الرشّاش..

وكل شاعر «هَيَّأَ» و «عَبّأَ» بقصائده وأناشيده لثورة نافعة للوطن..

أو عَرَض للشعب مساوىءَ حالة يجب أن ينهض لتغييرها، والانتقال منها..

أو حبّب للمخلصين، التضحيةَ والكفاح في سبيل خير الأمة والوطن..

أو «بعث» في المواطنين روح النضال والجرأة والصلابة في مقارعة الباطل..

مثل هذا الشاعر ينتصب في مصاف القادة والزعماء الثوريين..

وكل شاعر إيجابي ذكر وصوّر تمزّقَ وطنه وأرى الحدود الرملية تفصل بين قومه، واستنكر هذا، ودعا إلى مَحْو الحدود، وإلى الوحدة، فهذا شاعر وحدويٌّ ثار على وضع مغاير لسنة الطبيعة والتاريخ والجغرافية..

وكل شاعر إيجابي تعرّض للاستعمار الذي أخنى على قومه ومزّقهم.. أو عرض ظلم حاكم جائر من قومه على قومه، وعبّر، بصدقٍ عن انفعالات تجيش في صدور الغيارى منهم..

فهذا شاعر ثائر حرٌ ــ بحقٍ وحقيق ــ نادى بالتحرر من أوضار سوَّدها أعداءُ الوطن على أبنائه وأرضه وخيراته..

* * *

ولسنا بمستطيعين أَنَ نُخرج من دائرة العدالة الاجتماعية، شاعراً اشهر سلاحه، القصيدة، في وجه التفاوت الطبقي والتباعد السلمّي بين غني القوم ومدقعهم، وهزّ ذراعيه ــ يراعه ولسانه ــ في وجه سيطرة الاستغلال الثرائي على جهود وعرق طبقات شعبه المسحوقة من عمالٍ وفلاحين وموظفين صغار..

إن مثل هذا الشاعر في لب دائرة السعي لخير أمته والعدل فيها وتحرّرها وتقدمها.

* * *

ونخلص مما قدمنا إلى:

ــ إن أي شاعر أو شاعرة ملأ أسماع وأفئدة شعبه، بكل ما تصبو إليه أفكار وعقول الغيارى على ماضيه وحاضره وقابل تاريخه، والساعين إلى إنقاذه من: التمزق والظلم وأنياب الفقر والتخلّف وسوء توزيع الثروات.. لا بد أن يكون في عداد المصلحين والمناضلين والأحرار، ولو غطّى الآخرون، والظروفُ جوانباً من حياته، أدلة على طيبته وثوريته ونضاله على طريقته:

ــ القصائد والأشعار..!

□ □ □

شيء من التاريخ!

أرى أنه يلزمني قبل الحديث عن الشاعر الشيخ علي الشرقي، الحديث عن فترة مرّ بها القطر العراقي والأمة العربية طال أمدها اثنين وسبعون حولاً ــ وهي عمر الشاعر ــ أي منذ مولده في عام ١٨٩٢ ــ إلى وفاته عام ١٩٦٤ ــ فأقول:

عشرون عاماً من عمر الشاعر والأقطار العربية تحت سيطرة العثمانيين الذين سيطروا وتحكموا فيها منذ عام ١٥١٦، وفي عام ١٥١٧ فتحوا مصر وفي ١٥٣٤ بغداد ــ ثم أغار عباس شاه إيران على العراق عام ١٦٢٣ إلى أن استعادها من الفرس السلطان العثماني مراد خان.. وبقيت الأمة العربية تابعة للدولة العثمانية إلى انتهاء الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٨، وتسلمتها بريطانيا وفرنسة واسبانيا ــ بطرق مباشرة أو غير مباشرة.. وبعد الحرب العالمية الثانية تنفس العرب لصعداء وعادت رياح الحرية والاستقلال تهب على أقطارهم، هنا وهناك، وكانت ثورات قومية وطنية متعددة أنقذت مصر من حكم آل محمد علي، وقامت كل من: الجمهورية العراقية، والجمهورية الليبية والجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية، والجمهورية اليمانية،

جمهورية الصومال وجمهورية السودان، بعد أن قامت الجمهورية السورية والجمهورية اللبنانية، بعد الحرب العالمية الأولى..

فكيف كانت تجري الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في تلك الفترة..؟

١ ــ فأما الحياة الثقافية، فكانت أبرز معالمها ــ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ــ أي في العهد العثماني ــ ما يسمع في أركان المساجد، وما يتلى حول الأضرحة، في مدن بغداد والنجف ومدارسهما، ما حفظ اللغة العربية من الذوبان في اللغات الوافدة، وما أخذ نصيب العناية به من التراث ومصنّفات الأقدمين في التاريخ واللغة والشعر والأدب، والعلوم العربية والدينية كالنحو وشرح النصوص والبلاغة والفقه وتفسير آيات القرآن وشرح الأحاديث النبوية وبعض الأشعار المعلقة والذائعة..

وما أن أطلّ مطلع القرن العشرين، حتى تقاطرت على العراق فئات متباينة الغايات من أهل أوربا، منهم المبشرون والفنانون والنفطيون والأثاريون والضالعون في الآداب واللغات القديمة وهم الذين سعوا، بكل جهد، لخطف ونهب التراث العربي، مطبوعاً ومخطوطاً، إلى بلدانهم، وحفّز هذا الاهتمام والتهريب، أبناء الرافدين، إلى الاهتمام بتراثهم المجيد، وبنشر الوعي الوطني والقومي في المجتمع العراقي..

٢ ــ أما عن الحالة الاجتماعية، فلم يجرأ أحد على القول بأنها كانت حالة جيدة أو مرضية، بل يذكر العراقيون والعرب والأجانب، أنها كانت من حالات التخلف وأقرانه الجهل والمرض وهزال الأخلاق وسوء

التعـامل. . يسنـدها الفقـر والفاقـة، والمجاعـات والأوبئة والتقـاتل اللاسببـي. .

٣ ــ والحالة السياسية، أبلى وأمرُّ. . كان الغرب يتربص بالدولة العثمانية، لهدم بنيانها وتفتيت هيكلها، في قعر دارها، وأطرافها ــ ومنها العراق وسلاطينها تقيِّدهم المشاكل والمتاعب عن حسن الإدارة وتثبيت أركان الدولة، وإقامة العدل والنظام في ربوعها وبين القوميات الأصيلة في مستعمراتها، كالعرب والأكراد وغيرهم. . حتى يحق لنا، أن نقول أن الحالة السياسية واطئة وقلقة في المنطقة العربية.

□ □ □

نشأة الشاعر

في مثل تلك الأجواء نشأ شاعرنا علي الشرقي، يشارك الناس آلامهم وطموحاتهم، وأنينهم السلبي وابتسامهم الإيجابي المتفائل أو المتمني الأمل.. ويصرخ مع صرخة طرابلس ليبيا وقدس فلسطين ودمشق الشام وصنعاء اليمن، بل كان مع هيروشيما في أنينها..

ألم يكن هذا شاعراً إيجابياً..؟
وطنياً وقومياً وإنسانياً..؟

نعم، هو كذلك، رغم بعض اندفاعات الفتوة، إلى قول الشعر، في غير أهله، وفي غير منزلته، كما نراه اليوم وننظر إليه، بشائبة من السلبية التي فرضتها ظروف خاصة وأحوال عامة قاهرة، أو مجانفة لسريرة نفسه الموجبة..

ويتضّح لنا ذلك جلياً عند دراسة حياة الشاعر ـ صبياً، وفتىً معمّمًا دارساً، وناشئاً في مدينة عراقية تتميز، بعد قدسيتها، بالعلم والأدب، ومطارحات التاريخ والشعر وكل صنوف المعرفة، في مجالسها الخاصة ومعازيها العامة، وفي ساحاتها وبساتين كوفتها، وحاراتها ودرابينها، وفي مساجدها وحسينيّاتها.. وسراديبها، وسطوح منازلها..

يتـداول النجفيون والكـوفيـون، الشعـر والأدب، ليـل نهار، ويتداولهما المهاجرون إلى النجف، كما يتداولهما، زوّار المواسم الكثيرة، والمناسبات المهمة.. ويتناقش فيهما الأدباء والشعراء والمؤرخون، كما يتناقش فيه الأساتذة الشيوخ والطلبة من الأهل والوافدين من العراق والأقطار المسلمة الأخرى..

ويحـاجج فيهـما الأبناء والآبـاء والأجـدادُ والأسبـاط والأعمـام والأخوال..

□ □ □

ومن التصميم، إلى التخصيص نقول:

□ **من شجرة أبيه:**

هو علي بن جعفر بن محمد حسن من نسل الشيخ نعمة بن حسين (الشرقي) من زعماء قبيلة «بني خيقان» العربية، التي كانت تقطن بطائح جنوب العراق، وعلى ضفاف نهير الغرّاف الذي يأخذ ماء دجلة، ويصبه في الفرات قرب مدينة الناصرية وريفها الجميل..

وقد هاجر جدّه (الشيخ موسى) من الفرات إلى النجف وأسس (بيت الشرقي) فيها في القرن بداسة القرن التاسع عشر..

□ **ومن شجرة أمه:**

فهو ابن سيدة من بيت اشتهر بالعلم والأدب والشعر، بيت الشاعر محمد مهدي الجواهري، الذي كان عميدها الشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٨٥٠، قد ألّف كتابه الموسوم (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) وسمي بيته باسم الكتاب ونسبت الأسرة له (الجواهري)..

وفي ١٨٩٢ ولد الشاعر في النجف، وتوفي أبوه.. وترعرع الطفل

اليتيم في احضان امه ورعاية أخواله (آل الجواهري) .. وقد كفله جده، لامه، الشيخ عبد علي بن الشيخ محمد حسن صاحب كتاب «الجواهر...».

□ □ □

مراحل الدراسة

كان سنّ التعليم، آنذاك، غير سنّ التعليم ـ السادسة ـ في أيامنا..

(أ) ولما بلغ سن التعليم دفعته أمه إلى جارة لها كانت تمتهن تعليم الصغار في كتّابها..

وتعلم الطفل من أستاذته:

١ ـ الحروف العربية غير المشكولة (المحرّكة).

٢ ـ الحروف المشكولة..

٣ ـ القراءة في القرآن من (أبجد، هوّز، حطي..» إلى الختمة (نهاية سورة البقرة)..

(ب) وبعد «زفة الختمة» التراثية، انتقل الفتى إلى كتّاب، مديرته سيدة مثقفة، علّمته مبادىء العلوم مثل:

١ ـ الخط العربي..

٢ ـ مبادىء الحساب (الجمع والطرح..)

٣ ـ أقسام الكلام ومبادىء النحو.

٤ ـ تلقين بعض المسائل التربوية والسلوكية..

(ج) ثم ضمّه خاله (عبدالحسين الجواهري) إلى مدرسته (بيته ومجلسه)، مع أبنائه. .

وكان ذلك المجلس، مدرسة عالية، تحفل بمِلاكٍ من الأساتذة وشيوخ الأدب وأهل العلم والفضل منهم: الشيخ محمد جواد الشبيبي ـ أبو الشاعرين محمد رضا الشبيبي (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥) ومحمد باقر الشبيبي.

ومنهم الأديب الشاعر جعفر الحلي والشيخ عبدالكريم الجزائري.

وكان لتلك المدرسة الأهلية أكبر الأثر في نبوغ الشاعر وبروز نباهته ومواهبه، حتى صار متفوقاً على زملائه الطلبة، الذين ينظرون إليه، وآباؤهم كذلك، بعيونٍ غير مرتاحة، ويعاملونه بشيء من القسوة والتنغيص، فيتركونه في بكاء صامت داخل نفسه. وتنعدم لديه طاقة التحمّل على البقاء في دار خاله. . ويقرر ـ وقد بلغ درجة اتّخاذ القرار ـ الأخذ بالموروث من القول (خذ العلم من أفواه الرجال) ـ وكان يُعتمد على شهادات الرجال، كما يؤخذ اليوم بالشهادات المدرسية ـ وترك بيت الخال ومدرسته، ليتتلمذ في محافل الأدب ومنتدياته، ويأخذ العلم من أفواه أصحابه في «حلقاتهم» و«دوائرهم» التي تشبه اليوم قاعات الكليّات والمعاهد العالية ـ وكانت تعقد في «الصحن» وغرف مرقد الإمام علي بن أبي طالب «ع» ـ كما كانت تعقد ندوات مثلها في البصرة والكوفة والموصل وبغداد ـ في العهد الإسلامي الأول (الأموي والعباسي). .

ولكن ما أصبح يعاني منه الشاعر اليتيم أمران هما:

١ ـ السكن والمأوى، ولم يخلّف له أبوه داراً أو عرصة صغيرة. .

٢ ـ عُقدة الحصول على كتب المراجعة والنصوص، ولم يكُ أبوه العالم

الأديب، قد ترك له كتاباً، أو ورقة كتابةٍ وقصبة وحابرة.. ! لكن الأم الرؤوم تتدبر الأمر وتقدم له:

(أ) شرح الفية ابن مالك في النحو والصرف.

(ب) مُغني بن هشام.

(ج) ديوان المتنبي مالىء الدنيا..

ويَسَّر له زميل تعلّم بعض اللغات الأجنبية أفاد منها في معرفة الأفكار المنظمة بأشعار في غير لغته العربية..

* * *

وساعدته الظروف ليكمل دراسة توازي الدراسة الجامعيـة في مرحلتنا الحاضرة، بعد أن انتقل إلى القسم الداخلي (الغرف المخصصة لطلبة العلم في النجف).. ونال شهادتها بتفوّق وامتياز ساعداه على التنقل بين مدن الوطن والبلدان المجاورة.. ليتم له النضج الفكري، ولتتّسعَ دائرتُه الثقافية وتبينَ فتوّته ويبلغ شبابه حداً استطاع فيه مقارعة المصائب ومعاكسات الأيام.

□ □ □

مُدرِّسوه

١ ـ الملاّية جارتهم. .

٢ ـ الأستاذ (جناب عالي) ذلك الشيخ الذي يتولى تدريس ـ مناهج الدراسة الابتدائية المعاصرة ـ الحساب واللغة العربية ومبادىء العلوم والتاريخ ومبادىء السلوك الاجتماعي، والعادات اللازمة للطالب. .

وجناب عالي اسم مستعار لأستاذ لم يكشف اسمه الصريح، لغرض غير صريح حتى للشرقي نفسه وللآخرين. .

٣ ـ الأستاذ عبدالحسين الجواهري ـ الخال ـ وكان من أبرز أساتذته، والمؤثر الفاعل في تفتح ذهنيته، على الكثير من جوانب العلم ومناهل المعرفة. .

٤ ـ أما الأستاذ محمد جواد الشبيبي فقد رعى الشاعر الشرقي وأطلعه على التراث العربي، وشخصياته من الذكور والإناث، في الجاهلية والإسلام والمعاصرة. . ولم يكن الشيخ الشرقي يتلقّى معلومات أستاذه الشبيبي الكبير، وإنما شاركه بذلك ولداه: محمد رضا ومحمد باقر. .

٥ ـ ومن أساتذته العالم الديني محمد علي هبةالدين الشهرستاني ـ السيد الحسيني الهاشمي ـ الذي حارب جهل الأمة وضلالاتها، وضحّى كثيراً في سبيل تنقية «الدين» من الشوائب والبِدع التي دُسّت عليه وفي شعائره، كما حارب الغزو البريطاني في عام ١٩٢٠، وحُكم عليه بالاعدام فالتجأ إلى صديقه والدنا في سوق الشيوخ، واختفى في دارنا عن بطش أبناء التايمز، حتى يئسوا من العثور عليه، ثم أعلنوا العفو عنه، وبعد ضغوط شديدة من أهل العلم والأدب، نصبه فيصل الأول، وزيراً للمعارف وقاضياً شرعياً..

وكان للشيخ هبةالدين مدرسة تضم مجموعة من طالبي المعرفة ـ فأصبح الشرقي يتغذى برأي صاحبه المعاصر ويتبصّر من مجلته (العلم) بسبل الحياة الحديثة، ويتمرن في المدرسة على مجابهة الآفات الناخرة في جسم المجتمع العربي كالجهل والفقر والتخلّف والانحراف..

٦ ـ أما مَن علّم الشاعر الشرقي مبادىء الفلسفة وعلم الأصول والفقه والمنطق والتاريخ ومعجمات اللغة وعلم الرجال والرياضيات، فيقول الشرقي نفسه: إنه آية عصره، الحجة في الفلسفة النظرية وعلم الأصول مؤلف الكتاب المشتهر (الكفاية في الأصول): الشيخ محمد كاظم..

□ □ □

في أسار الوظائف

الوظيفة، مهما علا مركزها وسما مقامها، فإنها للشاعر قفص وقيد ورباط. . تنقّل الشرقي بينها:

١ ــ فقد شاء حظ الشاعر الشرقي، أن يخفق أمام الشاعر محمد باقر الشبيبي في انتخابات البرلمان عام ١٩٢٨. . فصدر أمر بتعيينه عضواً في مجلس التمييز الشرعي في بغداد.

٢ ــ وبعد تمتعه قليلاً بهذه الوظيفة، صدر أمر نقله قاضياً شرعياً في مدينة البصرة. .

٣ ــ وفي سنة ١٩٣٣ ــ تَمَّ ترئيسُهُ لإحدى محكمتَيْ التمييز الشرعي في العراق. .

٤ ــ وبما أن الشرقي لم ينجح مرة في الوصول إلى كرسي النيابة ــ في مجلس النواب ــ فقد صدرت إرادة ملكية بتوقيع الوصي على العرش ــ عبدالاله بن علي ــ بتعيينه عيناً في مجلس الأعيان العراقي، لمدة أربع سنوات بدأت سنة ١٩٤٧. .

٥ ــ عام ١٩٤٩ ــ أصبح الشاعر وزير دولة، ومكث يتقلد المناصب

الوزارية إلى يوم العراق الخالد (١٤ تموز ١٩٥٨) الذي أطيح فيه بالنظام الملكي في العراق، وحوكم جميع رجال ذلك العهد وحوسبوا على ما اقترفوه في حق الشعب والوطن.

ولم يحاكم الشيخ علي الشرقي ـ الوزير والعين ورأس محكمة التمييز الشرعي وقاضي البصرة، وعضو المحاكم العراقية، لأنه ما كان قد اقترف ذنباً بحق الشعب والوطن، وما كان راغباً في تلك الوظائف. لولا ظروف خاصة وزوايا غير خافية في سياسة ذلك العهد تتماشى مع أحوال المجتمع المذهبية والعرقية..

□ □ □

ملامح شخصية

لأن الإنسانَ ابنُ بيئته، فقد كان الشاعر الشرقي «محافظاً» نشأ في وسط اجتماعي محافظ، واهتمّ بالموروث من الأفكار المقدسة، يُعتبر المعارِضُ لها، أو المتنكر، خارجاً، على القيم السائدة وقداستها..

ويُضطر حامل الأفكار والآراء غير المألوفة في النجف وعند علمائها ورجالها، إلى أن يخضع لأسلوب الحياة آنذاك، ويتسلّح بالصبر أولاً، وبالانطواء على السريرة، والانصراف إلى ما يلهيه عن تذوّق شراب مجتمعه المرير الخابط: يَدرسُ بعمق، وينكبُّ على المتابعة المعرفية، فلا يُرغم على إعلان النقد ومعارضته الأمور المخالفة لأفكار «الحداثة» التي تشرّب منها بمطالعاته كتب العلم والأدب وصحف مصر والشام، وأسفاره داخل القطر وخارجه..

وبعد الحرب العالمية الأولى، لامست ملامحُ حياة الإنسان في أوروبا ملامحَ حياة الإنسان العربي.

وأنار للفرد العراقي، بعضُ الأوروبيين «الإنسانيين» سبلَ التغيير الاجتماعي والتفكير المنفتح على صنابير العلم الحديث، والأدب المعاصر..

فانطلق الشرقي، يكسّر قيوداً كبّلته بها الحياة المحافظة المعتمة التي أكـره على أن يحياها، في أوائل أيام شبابه عند أخواله وكنفِ والدته. . وعاد إلى فطرته الحرة، يكشف معـالم شخصيته المنـطلقة «متمـرداً» و «خارجاً» على مجتمعه وتقاليده الموروثة ـ جموداً ولمصالـح ذاتية ـ وبدأ الشرقي جريئاً معتّداً بنفسه، غير مهتم بردّ الفعل على نقده وكشف الغطاء عن الملامح الرجعية في المجتمع النجفي والعراقي والعربـي، والإسلامي، وملامـح الغصب الأوروبـي لخيرات الشـرق السمح، وطغيان الاستعمار وخبث أساليبه ونكث وعوده. .

ولم يكفِ نفسَ الشاعر نفثُ الشعر الناقد والكتابة الثائرة، وحزم أمره على تشكيل تكتّل شبابـي متجدد في «جمعية مكافحة الفقر» التي كان من أهم مآربها: نشر الأفكار التقدمية، وخلع أسمال التقاليد البالية عن المجتمع الذي يرومون تجديده، ونفضَ غبار القرون وشوائب التخلّف عنه، في مدنه وقراه وأريافه، وبَدَرِهِ ومَدَرَه، وفي جميع الأقطار العربية والإسلامية. .

وأخذت «جمعية مكافحة الفقر» بقول الإمام علي بن أبـي طالب (لو كان الفقر رجلاً لقتلته)، لتغتال الفقر وتقضي على مراكز القوى في أوكاره ومنابته بسلاح، حسبته بتّاراً، يعتمد:

١ ـ الدعوة إلى إصلاح «الإنسان الفرد» أولاً والمجتمع العام، ثانياً، بالتنقية الشاملة من جميع الأوضار والأوشاب والأوشال، أيضاً. . وتنوير ظلام العقول وحلك الأفكـار المتجمدة حـول الأطمار البالية المهلهلة. . !

٢ ــ رِي المجتمع بماء الأفكار العلمية والثقافية من عيون المعرفة التجريبية ومنابعها الثرة.

٣ ــ تلقيح المجتمع الحي، بما يقويّهِ على تصحيح مساره متساوقاً مع إبداعات عقل القرن العشرين، في غرب الكرة الأرضية وشرقها وشمالها.

٤ ــ تتدارس الجمعية ما يصل أعضاءَها من الأفكار الواردة ــ علمية أو أدبية ــ من خارج الوطن، وما تنقله إليهم صحف الشرق والغرب..

٥ ــ العمل بجدٍ ودأبٍ على جمع «التراث» المكتوب ــ المخطوطات والمطبوعات والمنقوشات ــ وشرحها وتيسير اطلاع الشعب عليها، وذلك بنشر مطوياتها وإعادة طبعها والإعلان المحبب عنها وعن احتواءاتها النافعة والطريفة في العلوم والآداب ومسالك الثقافة والتربية وكل قنوات المعرفة والتطور نحو الأحسن..

هل تعلم أخي القارىء أن للروس، كانت قنصلية سياسية في مركز مدينة كربلاء..؟

ومن الطرائف في هذا الأمر، أن مؤسِّسيْ «جمعية مكافحة الفقر» الشاعر علي الشرقي، وزميله، في مهمة نشر التراث، وتعاطي عملية تسويقه بيعاً وشراءً ــ كانا يشتريان، ما بدأ الناس، يطلّعونه من حوالك السراديب إلى باب الجمعية، من كتب التراث، ويدفعان الثمن البخس عاجلاً أو آجلاً..! وتراكمت عليهما ديون التراث مرة، بعد أن ابتاعا، كمية من المخطوطات الثمينة، فقرّرا بيعها على القنصل الروسي في كربلاء.. وأثناء سفرهما من النجف إلى كربلاء، لم يتيسر لهما ثمن وجبة

غداء من كباب المدينة أو تمرها ولبنها. . فاضطرا إلى «غزو» جنائن البرتقال، في غير موسمه، وإلى أن يتناولا وجبة غير هيّنة من ورق أشجار النارنج المرة. .

فقال الشرقي: إنها شديدة المرارة. .

فيجيبه زميله الجائع مثله (محمد رضا الشبيبي) مازحاً: ولو. فإنها نافعة للمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة، يا علي. .

فيقول الشرقي للشبيبي:
ــ ومتى صيّرك الجوعُ طبيباً يا رضا. .؟

فيردُّ الشبيبي:
ــ منذ صيّرك «سروا دودة الشجر» بعد أن كنت تقول:

خمس وعشرون أعواماً قد اندرست
في الكتب بحثاً، كأني «دودةُ الكتبِ»

* * *

وأخيراً اشترى القنصل المسكوفي تلك البضاعة التراثية، بثمن غير بخس، مكنهما من إيفاء الديون المتراكمة على ذمتيهما لدائني الجمعية والورّاقين من طباعين وناشرين وموزعين. . !

□ □ □

التحدي والتطاول

بعد وَحشْة اليتـم، وتحمّل مرارة العيش برعاية غير الوالدين وحنانهما وتدليلهما، وبعد الضنك وجهد التحصيل، تتأصل في نفس الشاعر، سلبيةٌ نحو المجتمع النجفي إلى أن يستقلَّ بمعالم شَخصيةٍ متميزة تنحو نحواً إيجابياً في اتجاه الحرية والتعبير عن الرأي الحر المستقل الجريء في تحدي المجتمع ـ بملامحه السلبية فقط ـ التي كان الناس يتمسكون بها بشدة وجهالة. . وفي طرح الخواطر الصائبة والخطط المدروسة لإصلاح المجتمع وتنقيته من نشازٍ وتخلفٍ يُضحكان الحداثة بملء شِدقيها (الغربـي والشرقي)، كشعلةِ الصائغ أو بوتقته، تصفّي الذهب التبر من شوائب المعادن الدنيئة والأتربة الرديئة. .

وفي تعرية المتنفعين من إبقاء وتمكين ذلك النشاز والتخلّف من تثبيت أقدامهما في «عواطف» ومشاعـر السّذج والنـاشئة، ومن تحبيب مساوئهما، وتكرار التأكيد على عدم جدوى «التقدم» والأخذ بالفكر والعلم الحديثين، لأجل الحفاظ على الشعائر المصانة والتقاليد المحترمة. .

وجاهر الشاعر الشرقي بآرائه الجديدة الجريئة.

ينقد الحاضر الغافي بأحضان الماضي الغابر، بتحدٍ دون مواربة وبتمّردٍ دون خوفٍ أو وجل، وإنما بثقة قوية بالنفس وبالقول الواخز، لا اللامز، يهز أركان الانتهازية واستغلالية الأحياء للأموات والأجداث الطاهرة، وابتزاز مواسم الخير والسغب معاً. .

وبسبب ذلك التحدي وتلك الحماسة الجُريئة للحداثة، جوزي سنمار بخصومات حادة موجعة وحصار مقيت في عقر داره ودارة فكره وضميره، وبإلقاء النعوت المحرّضة على الفتك به، جزاء التطاول على حفّاظ، روحانيات الناس، ومفاتيح أيامهم وأبواب خيراتهم وأُخرياتهم من العصر وعلومه. . وعلى من هم كجراب منفوخ، يعين الناس، على عبور نهر الخابور الغاضب المزمجر. .

وكانت تلك النعوت الباطلة والتهم المزيفة من أهم أسباب انزواء الشاعر الشرقي، الفتى المتدفق علمًا وأدباً وغيرةً على المجتمع، حذراً من استمرارية انحداره إلى الوراء. .

وقد وصفه بعضهُم بقوله أنه (المعادلة الصعبة) استناداً إلى أن الشرقي رجلٌ صعب الفهم، عريض الأمل بمستقبل العلم والتحضر، شديدٌ في تقديم دوره الأدبي في الحياة والذي يستخدمه في عملية غسل أدمغة بني وطنه الصدئة وعملية تعقيم ضد جراثيم التخلّف الذي ينخر جذع المجتمع ويدفع نور الخير عن أبنائه وبناته. . وعملية قهر للرجعية التي تقف حجر عثرة، وتتكوّر في سبيل نضج الإنسان وتقدمه. . وعملية كشف عن مساوىء وعيوب المغلّفة رؤوسهم بأنسجة الأبالسة الأشرار. .

ومن ملامح شخصية الشرقي، أنه لم يختص في جانب واحد من جوانب الأدب وفنونه حتى توسّع فيها وأفاد منها فوائد أنزلته في سوح

القلم والعلم منزلة مرموقة، وجعلت منه شخصية متميزة غمرتها ـ في طفولتها ـ أمواجٌ من منغصّات العيش واليتم والكبت والنكد والحرمان، ثم اندفعت تلك الشخصية نحو المعّوضات، وكان لها العلمُ والأدب، خيَر معّوض، وأسلم مُعَزٍ ـ رغم وعثاء السفر ـ ولها من اتقان اللغة واليقين من دروبها الفصحى، منذ نعومة أظفاره، ما جعل بيانه ساحراً بليغاً جلياً، بعيداً عن الحوشية والحصوية والقاموسية، مُسنداً بقوة البرهان ونضوج الإدراك، وبسعةٍ في الصدر تحتوي النقد القاذع والحديث اللاذع، دون عنجهية الغضب وسورة الانفعال، بحديث هادىء رصين مُقِنعٍ، مطعّمٍ بالدليل والواقع والشواهد والأمثال، أو بشعر نابغ يُصغى إليه بلذة السمع والفهم والنغم..

□ □ □

في السياسة

١ ـ قبل مولد الشيخ علي الشرقي بستة عشر عاماً، أعلن الدستور العثماني. . الذي عُمل به، ودام عمره طويلاً ـ إلى ما بعد ولادة الشيخ بستة عشر عاماً كذلك. (وكانت ولادة الدستور العثماني عام ١٨٧٦ وولادة الشاعر عام ١٨٩٢ . وأوقف العمل به، ووضع في جَمادة سنة ١٩٠٨، وهو فتى بين الدساتير لم يتخطَّ العقد الثالث من عمره، إلاَّ بعامين اثنين فقط . .).

وبعد إلغاء الدستور العثماني، كشفت حركةُ تتريك غير الاتراك من العرب وغير العرب عن خبث نواياها تجاه القوميات التي تضمّها الامبراطورية العثمانية وتداعب خيالَها بنودُ (العقد الاجتماعي) الذي نظرته الثورة الفرنسية في العالم الغربي.

وكان شاعرنا فتى جاش فؤاده، في النجف، بتأييد الدستور العثماني، وآلمه إلغاؤه والتّتريك وهزّاهُ . .

وفي البصرة كانت جمعية ـ تعمل سراً وخفيةً ـ لما تتوق إليه نفسُ الشاعر الشرقي ـ تسمى (جمعية الإصلاح العربية). . فانضم إليها سراً

لكن جهره بما أخفت من نواياها عن السلطة، عاد عليه بالويل وعرّضه لبطش السلطة العثمانية في النجف. . فَفَرَّ بجلده وعمامته، إلى قضاء الشطرة وإلى حماية (آل سعدون وآل عُبَيد) من عشائر الغرّاف. .

* * *

٢ ـ وفي عام (الشعيبة) ومعركتها (١٩١٥) بين العثمانيين، وإلى جنبهم من العراقيين جيش لجب، وبين الغزاة أبناء سكسون والتايمز، كان الشيخ علي الشرقي، داعيةً إعلامية، متنقلة بين مدن جنوب العراق وعشائره ومشايخه، ينادي بفريضة (الجهاد) ولتأديتها في ساحة (الشعيبة) القريبة من البصرة. .

* * *

٣ ـ في السنة الختامية للحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) عاد الشاعر من منفاه الاختياري في منطقة الشطرة إلى مسقط رأسه النجف، ليتصل بالجمعية السرية (النهضة الإسلامية) ويشارك إلى حد ما، في القضاء على حياة الحاكم البريطاني المتعسف (مارشال)، وفي احتلال مركز الاحتلال في المدينة، مما أثار حنق الدم البارد في الانجليز ليفرضوا حصاراً خانقاً حول المدينة ليذيقوا أبناءها مرّ العقاب والقصاص، وكان الشرقي قد عانى من الحصار أهوالاً عامة صُبّت على المدينة الصابرة. .

* * *

٤ ـ وحين نضجت فكرة ثورة العشرين (١٩٢٠) لدى رجالها، تقرّر أن ينتقل الفتى المتطوع للثورة (علي الشرقي) إلى منطقة الشطرة،

أيضاً، ليرأس مجلس قيادة الثورة، هناك، وليساهم في العمليات الثورية مساهمة فعليّة، عرضّت حياته للاستشهاد.. ولم يفلح.

* * *

٥ ـ وتبادل الشرقي علي والشبيبي محمد باقر، الرأي ـ بعد فشل ثورة العشرين وانتصار الانجليز ـ فلم يتفقا على أن استمرارها بالمقاومة، في حينها، غير مجدٍ وغير واقعي.. وإن التأنيّ. إلى حين يجتمع رأي الثوار على عمل ثوري ثانٍ، واجبٌ سيحتّم على الانجليز (التريّث) في صب نار الانتقام، لقتلاهم ولخسائرهم، على أبناء جلدتها العراقيين الذين أثقلهم الاستعمارُ وفشلُ الثورة بالغرامات والفروض والمصادرات ـ وهما يريان كذلك بعض وجوه الساسة، قد اعتلوا المناصب العالية، تحت غطاء «الحكم المؤقت ـ ذي اللون العربي واللب الانجليزي..».

وكان الشرقي يرى إعارة ما تقدم اهتمامَ الثوار، الآن، والشبيبي لا يرى رأي زميله.. ثم تعلن المكارهة والمتاهمة بينهما وفي أوساط السياسة والأدب في كربلاء والحواضر الأخرى..

* * *

٦ ـ واستقر رأي الشاعر الشرقي المفترى عليه، أن يلتزم بفكرة الثورة والنهضة العربية وأن يتبعها إلى أين يشعُّ بصيص من نورها، وتدوّي طلقةٌ من بنادقها..

بحث هنا وتساءل هناك، فلم يجد للقضية العربية محرِكاً ثائراً غير الشريف حسين في الحجاز، فشد رحالِهُ، على ناقة، من النجف، إلى

من اعتبر رجل القضية العربية الأول، لكنه لم يجد ضالته في الحجاز، وعاد كاسف البال يعتمره القنوط، ويسحقه اليأس، ويهديه الواقعُ تفكّراً جديداً ومنظاراً ملائماً، بدأ فيه النظرَ إلى عزلة، آخاها حتى عام ١٩٢٦.. مال بعدها، عن التطرّف إلى أواسط الأمور، وأهون الحلول التي تضمّن للإنسان المفكر رزقه ودوام كينونته، دون غضّ النظر الضميري عن وجائب الوطنية وحب الحرية والاستقلال والتقدم..

ودون التنكر للمبادىء الوطنية والآمال القومية، والآداب الإسلامية ــ مهما زاد أجرُ الوظيفة وعلا مركزها ــ ومهما مُنعت أو حرّمت أو قلّ راتبُها..

وفي معمعان السياسة والوظائف، لم يغيرّ الشاعر الشرقي، من سلوكه ولم يبدّل من أخلاقه، وعلاقاته الإنسانية.. ولم يهمل الأدب والعلم أو يقصّر في الأخذ منهما، أو في العطاء المكتوب والمقول، ولم يبخل بعطفه على محتاج إلى عونه وأدبه وفضله من معارفه وغيرهم ومن أهله وبنيه.. ولم تخشن رهافةُ حِسّهِ ولم يغلظ قلبه، أو تهِنْ عاطفتُه تجاه وطنه وقوميته وعقيدته إلى أن بزغت شمس الجمهورية والاستقلالية فجر ١٤ تموز ١٩٥٨، فأعمت عيونَ خفافيش السياسة في المشانق والسجون، ولم تتعرض للشاعر بُهمزةٍ أو لُمزة.. حاسبة له نصيبه في قيامها، مقدرة له جهاده الثوري في فتوته، ونضاله الأدبي في كهولته، وتقدميته الشعرية في كل حياته الأدبية والعلمية والسياسية كذلك..

وكان الشرقي، كما كان لثورة العشرين، داعيةً مبشراً لثورة تموز ١٩٥٨ ــ فهو القائل:

بـنـاءُ مـائـل لـم يـحـكـمـوه
ولـكـن أكـثـروا فـيـه الـريـازة

فـقـارب من سـقـيط الـطل يـهـوي
ومـن خـاوي الـنـسـيم بـه اهـتـزازه
أَمَن طـرحـتْ حقيقـتـهُ الـبـرايـا
عـراقـي أنـت مـحـتـمـلٌ مجـازه
نـظام كـالـجـنـازة فـاسـتـعـدوا
بـنـي وطـنـي لـتشـيـيـع الـجـنـازه

* * *

وقـال:

فـالعقـل قـد قـال لنـا: كـابـدو
وهيّئـوا (ثـورةً) من بـعـد جيـل..

* * *

وقـال:

يـا أهـل أقـراص الشعيـر تحمّلوا
عـنتـاً يـصـارعكـم عـلى الأقـراصِ
سيجيء دوركم على البـاغـي الـذي
يـرجـوا المنـاصَ ولاتَ حينَ مـلاصِ
هـذي القصُور من الخُصـاص تشيّدتْ
ولـعَـلّهـا مـهـدومـةٌ بـخُـصـاص

من حق التاريخ الأدبي علينا القولُ: بأن لشعر الشرقي مرحلتين:

□ المرحلة الأولى ــ مرحلة التمسك بالأنماط الشعرية:

وهي مرحلة التمسك بالأنماط الشعرية القديمة والخضوع لكل التقاليد التي كان الناس يحكمون، بموجبها، على الشعر والشاعر بالجودة أو الرداءة، دون أي اهتمام بصدق القول الحق، والتعبير الصادق عن خلجات النفس في الحالات الشخصية الخاصة أو في التعبير عن اعتمالاتٍ خاصة معينةٍ في المجتمع..

وقد كانت حياة الشاعر الشرقي ــ في فترتها الأولى محتبسة في بيئةٍ منشَدَّةٍ إلى القديم بقوة، تقارع الجديد بكل عنف وعزم لا هوادة فيه، وتستغلُ الجهلَ وانكماش الثقافة، ومنافرة العصر وحداثته، وتستخدم الشعر الهابط والنثر الجامد في السيطرة على عواطف وأكفّ الجمهور، وتهدد بالويل وبئسَ القرار. و.. بالكفر والإلحاد.. وبالخروج على الشعائر والأقداس ــ وهذا ما ندعوه بالمرحلة الأولى.

وكان ذلك الوضع الأدبي في العراق، ذيلاً لما يطلق عليه بالفترة التي أسمّيها (الظالمة). . والتي أعتبرُها ممتدةً من سنة ٨٥٠م إلى ١٩٠٠، وكان الشاعر اليتيم يخضع أدبه لتقاليد ذلك الذيل المعتم. ولما يتذوّقه ناسُه ويحتفون به في مجالسهم الخاصة وندواتهم العامة في المساجد وعلى المنابر وفي مناسبات البهجة أو الأسى، وكان أكثره وأشمله يمرُّ بعملية أجترار وتزويقٍ في التكرار، دون تقييم ودون جهد، وبلا عاطفة صادقة، وبلا شعور حقيقي:

يـا مـشـرقـاً تقـارنَ الـصـبـحُ بـه
فـي يـوم سـعـد فـأضـاءَ وأضـا

نـهضـتَ يـا صبـحُ بـهـا مكـرُمـةً
لا يقـدر الـدهـر بهـا أن ينهضـا

يـومٌ كـعـيـن الـسـخط مـن حـسـودٍ
أبيض لـه في صبحه عين الـرضـا

بـوركـتَ يـوم بـهـجـةٍ أرّخـتُـهُ
أنـجب للهـادي عـلي بـن الـرضـا

* * *

قال الشاعر علي الشرقي هذه الأبيات يؤرخ مولداً لأحد أبناء صديق له عام ١٣٣١هـ.

وقبلها في عام ١٩١٢ قال رائياً أحد شيوخ النجف:

بـكَ الحِمام ابتـدا أم فيك قـد خُتمـا
فـعـمَّ أقـطارَ أرضٍ رزؤه وسَـمـا

وغادر الناس حيرى لم تضع قدما
من النعيِّ ولم ترفع له قدما

* * *

نور البشاشةِ في مصباح غرته
يبدي إلى الشمس نوراً كلما آبتسما

يبدي الشعاع انعكاساً في محاسنه
كأنما هو في مرآته ارتسما

* * *

يستخدم الدهر والأيامُ طائعةٌ
ويستقلُّ البرايا أن ترى خدما

يا من تعالى فلا فكر يحيط به
صِف لي ثناك فلم أملكُ لذاك فما

أنتم بنوا الأسرة العالي سرادقُها
لكنه بعمود الفخر قد دُعما

* * *

وفي ١٩١١ قال مهنئاً بزفاف:

الحكم للحُسْنِ ليس الحكم للدول
لا أيّد اللهُ إلا دولةَ المُقَل

أفـدي الجفـون التي سلّت صـوارمهـا

تحمي الثـنـايا ولا تخشى سـوى القُبل

* * *

قـالـوا تنقّـلَ عن عينيـكَ قلت لهم

فهـل سمـعتـم ببـدر غيـرِ منتقـل

* * *

وفي عام ١٩١٠ نفث أبياتاً دامعة، رمزاً لما كانت تتوق إليه نفسه وتشكو حرمانها من الحرية والبوح بما يكنه ضميره من شوق للتحرر وللعلم والمعاصرة:

في النفس آلام فهـل مـن مـوضـعٍ

حـرِّ الـفـضـاء لأشـتـكـي وأبـوحـا

لـو كـان شـرحـاً واحـداً لـذكـرتـه

لـكنـمـا طـوت الـضـلوعُ شـروحـاً

* * *

فَـلاَ نصحن قـومي وأن جُلبَ الـردى

كـالعـود يحـرِقُ نـفسَـه لـيفـوحـا

ولئن أمتْ جـزعـاً فـشـأن بـلادنـا

أن تـغـتـدي لـلمصـلحين ضـريحـا

قـالـوا الصحيـح نـرى فقلتُ تبـدلت

عين تـرون بهـا السـقيـم صحيحـا

قــالــوا الــطبيبُ فـقـلتُ كــلا إنــه
يشفي الجسـوم وليس يشفي الـروحـا

قــالــوا سيحيــا الشعب قلت بشــارةٌ
فـلعلّمــا بــعـثَ الإلــهُ مــســيــحـا

وتــسلّفــوا بِشْــراً بــرجعــة يــوسـف
إن يصــدقــوا فلينشقــوني الــريـحــا

يــا ديمــةَ الاصــلاح رِشّي مــوطـني
فـعســاهُ ينبـت مصـلحــاً ونصــوحــا

* * *

ولولا خضوعي لحتمية التسلسل التاريخي، لقدمت للقارىء هذه الأبيات إلى مصاف شعر المرحلة الثانية، المتجددة، الضاجة بالنقد والسخرية ومناجاة الحرية والاستقلال. ومجاراة الطبيعة والآلة الحديثة.. ومناداة الأمل والتمنيات العذاب للوطن والأمة وللإنسان...

ومثلها هذه الأبيات المنتمية إلى مرحلته الثانية لولا أن الشاعر قالها عام ١٩٠٩ ــ ومنها:

قـد كان هـذا الشرق شـرقـاً كـآسمـه
واليــوم أضحى الغـرب من أسمــائـه

طلعت شمـوس الغرب فـوق رياضـه
لا غــرو لـو غــربتْ بـأُفقِ سمــائــه

* * *

قد جاء مفتخراً ببنت بخاره
قُدماً وجاء اليوم بابن هوائه

انظر لسلك البرق نظّم سلكه
بعجائبٍ تنبيكَ في أبنائه

* * *

إيهاً رجالَ الشرق هلا جئتم
بسوى البطالة والخيال التائه

* * *

ولئن خبا للشرق نورٌ ساطع
فالعلم نور ساطع ببهائه

لا تطلب المجد الأثيل براحة
فالمجد راحتُهُ بقدر عنائه

* * *

ومن شعر الشرقي في تلك المرحلة قصائد وأبيات تهزّ ـ بعنف وألم ـ أحاسيس ومشاعر كل عربي وكل مسلم وهو يتلوها أو يسمع قوله قبل ستين عاماً:

أرى الناسَ إن تسلك طريقاً تعث به
فكم زَلَقاً قد أحدثوا في الشرائع

وينقصُ دنيانا نظامُ تجاذب
فقد خرّب الدنيا نظامُ التدافع

لقـد رسخت عـاداتُنـا في ظـلالهـا
ألا مصلحٌ يسعى لهـا بـالـمفـالـع

أرى الأدب العـالي تـداعت صـروحُـهُ
وعـادت خـرابـاً في ديـارٍ بـلاقـعِ

ولـيس خمـود الـشـعـر أو آنـطفـاؤه
بجيلي إلاَّ من (جمـود) الـطبـائـعِ

هَفـا كـلّ صـدّاحٍ وأمسـك شـاعـرٌ
فـلا نـغـمـةٌ إلاَّ غـنـاءُ الـشـوارع

* * *

ونحن، من هذه الأبيات اللوحات، نرى انحراف ذلك العهد (العشرينات) عن أصولْ الدين والشريعة، وما أضاف إلى فروعها بعضهم جهلاً بروح الإسلام، أو غرضاً ورائه قصد غير نقيّ..! وإننا نحسّ بتدافع أكتاف الناس، تناحراً وتنافساً وتزحزحاً نحو التمزق والتفرّق والتنابز.. ولا نحسّ بالتجاذب وتقارب أفراد الأمة ورصّ صفوفها لتشمخ ولا تخرب..

ثم يلفت الشاعر أنظارنا إلى ما كانت عليه الحال الاجتماعية المتردية المتخلفة، التي عمَّ فيها الجهل وانكمش العلم وغطّت أفكار آبائنا وأجدادنا غمائمُ عاداتٍ وعلاقات عصبية، قبليّة، جاهلية موروثة عن سلف السلف، دون مراعاة أو اهتمام بخطى الزمن المسارع نحو القمر وأشعة الليزر وزرع القلوب والأكباد والخصى.. وظلَّ آباؤنا وأجدادنا

ـ يرحمهم الله ـ يتنادون للعويل والندب على غلق الكتاتيب، وعلى سفور الوجوه، وضمور الحجاب، وحسر الرأس، وحلق اللحى..

ونرى، هذا الشيخ الشاعر ـ ذا العِمّةِ البيضاء تتوّج رأسه ـ يدعو إلى إنقاد الأمة، بعزم وهمة وسرعة ـ من تلك الضلالات والأفكار الزائفة والعادات البالية.. ويدعو إلى اقتلاعها من المجتمع، كما تُقلِ الأعشابُ الضارة من الجنائن.. وكما تقلع وتزال الصخور المتحجرة عن مَبلط سبيل جديد نحو أنوار التمدن والمناهل الحضارية..

والشيخ ينادي وهو يرفع عمته: ألا مصلح..؟ ألا هادٍ لهذه الأمة ـ يغسل دماغها ويزيل أوضارها ويحرّك التجاذب بين أفرادها، ويشذّب الديانة مما أُضيف إليها من غرائب ومخالفات ـ ويعيد لآدابها المتداعية أركانها القويمة، وللشعر مقامُه وأنواره التي أظلمها جمودُ القوم وصمُّ آذانهم عن النغم العذب، وتفتحها على التراتيل وتعاويذ الشعوذة وطبول مسيرات الموت والأعراس، وألحان الأوراد والذكر والشيش..! و (الهيوات) وبوقات القامات والزناجيل.. والتسابيح وعدد خرز السبحات وألوانها:

انظر إلى سبحته   ترى الذي أقول لكْ

شيطانة كخيطها   بين الثقوب قد سلك

* * *

ما آسودّت السبحة   إلاّ، لترينا عملك

* * *

وكان الشاعر الشرقي، في تلك المرحلة، مفيداً مكموماً لا يستطيع تعبيراً عمّا يعتملُ في قرارة نفسه الفائزة ولا فسحة له ليبوح بمكنونات ضميره.. وكانت تلك الكمامة وذلك القيد يتمثلان بسلطة رجال الدين وخدم الحضرة وحفّاري القبور، وشخوص الفواتح والمنائح، وتجار السوق البيضاء والسوداء.. وعملاء الأجنبي..

ويتمثلانِ في كل وجه ووجيهٍ لامع مسموع الكلمة، مفهوم الإشارة عند ذي السلطة في المدينة وذوي الأمر والشأن في العاصمة بغداد.

ويتمثلانِ في كل لسان سليط جارح فتّاك. عند النميمة والوشاية، ذي قوة وهيمنة على أسماع الجماهير المخدَّرة ببخور الرجعيةِ والعداءِ للعلم..

ولم يك للشيخ القدرة على مصاولة السلطة في المدينة وفي العاصمة، ومقارعة شخوص المدينة وعلّاماتها ووجوهها وألسنتها..! وهو اليتيم الضعيف عضلاً وجيباً..! وليس له من عدة الدفاع عن الحق والنفس سوى الدموع والحسرات يُنفِّس بها عن ضيقٍ يخنقه وألم يبرحه، وظَرفٍ مُرّ يُبكيه، ولم يجد رمحاً يدفع عن صدره الضيق والألم والمرارة سوى الشعر الصريح أو المرموز:

ما هذه العبراتُ إلّا زفرة
بَردَتْ فعادت مدمعاً مسفوحا

أفكلما تُغلي الصبابة مرجلاً
تتصبَّبُ الأجفانُ منه رشيحا

سقطت من الأجفان تفحص في الثرى

حمــراً، فَخِلتُ ســوادهن جــريـحـا

أخشى عليهـا أن تصـدعهـا الحصى

دُرراً فــأرخي عقـدهـا تـســريـحـا

تــتعــلّق الأهــدابُ في أذيــالــهـا

حــرصــاً ويَنفضهــا البكـا لـتـطيحـا

* * *

الــدمع عــاطفة يجيش بهــا الأسى

لــتـراوح الأشـجــان أولــتــريـحـا

* * *

في النفسِ أشياء فهل من مــوضع

حــرِّ الـفـضــاء لأشـتـكــي وأبــوحـا

ما أكثــر الشــوك الـمؤلـم لـلحـشى

حــول الفرات، ومــا أَقــلَّ الشيحـا

[والشيح نبات أنواعه كثيرة وكلّه طيِّب الرائحة، ومنه نوع ترعاه الماشية، ونوع فيه طبٌّ (شعبي) لمرضى السكري والدوخة. .) ويكثر في شمال العراق والأردن وفلسطين والحجاز. .]

ويجد القارىء في الأبيات التالية تعبير الشرقي الصادق وهو يصف بعض مشرّعي تقييد الحرية والتبشير بالعلم الحديث:

في رمال التاريخ آثار أقدام
رفاق تخطّت التاريخا

نفخت في الجراب دهراً وولّت
فورثنا جرابها المنفوخا

وإذا بي ما بين أجربةٍ تمشي
على الأرض سادة وشيوخا

* * *

وقد آستهل الشاعر هذه الرباعية بقوله:

أيها البلبلُ المعلّق في السجن
سلام أصخت أم لم تصيخا

* * *

والمعلق في السجن، مقيّد، فاقدٌ حريته في الانطلاق مرفرفٌ مغرّد داخل نفسه وقفصه..!

مَن السجان وما ألقا به..؟

إنهم الأجربة المنفوخة الماشية، بتواضع مزيّف على الأرض المطهرّة وغير المطهرة..!

ومثل هذا قوله في رباعية أخرى:

هذي الرؤوسُ ولكن كلها وجعُ
وذي العيونُ ولكن كلها رمدُ

وكم صـدور بهـذا القـطر فـارغـة
جـوفـاء لـيس بهـا قـلب ولا كبـد

صـدور أنـديـة في جهلهـا انتفخت
حتى تـشـابـه فيـهـا الهـرُّ والأسـدُ

مـن الشـراك قـد اختـارت لأمتـنـا
هـذي السيـاسـة ثـوبـاً كلّه عُقَـدُ

* * *

□ المرحلة الثانية:

علمنا أن الشاعر الشرقي، أهمل وحذف ـ بإصرار ـ كثيراً من أشعاره، حين أَعَدَّ ديوانه للنشر.. وغيّـر مفـرادتٍ وجملاً كثيـرة.. فهو بهذا التصرف بشعر المرحلة الأولى، قد أراد أن يضع حداً فاصلاً بين المرحلتين اللتين كان في الأولى، كما أسلفنا ملتزماً بتيار النظم القديم وأساليبه وتعابيره وأفكاره وبكثير من مناسباته: مديح، وأخوانيات ورثاء ومؤاساة، وأفراح الأعراس والختان..

وفي المرحلة الثانية صدح الشرقي بأعذب أنغام المواطنة والوطنية وقضاياهما، ليس في النجف وحدها، وليس في القطر العراقي فحسب، إنما على ساحة الوطن العربي الكبير في جزيرة العرب وشمالها وغربها في الشمال الأفريقي ـ من المشرق إلى المغرب، وساهم في أحداث الأقطار العربية كلها.. وشارك أحداثها، وسجلها شعراً وطنياً قومياً باهراً.. في:

١ ـ حين هجم الطليانُ ـ أبناءُ روما المتمدِّنـة على القـطرِ

الليبـي، وعاثوا، بحقدهم، في ربوعها، وأنزلوا مراسي استعمارهم في (بـرقة) و(طـرابلس الغرب)، وقتلوا أبنـاءهما وهـدّوا معالمهـما بعتوّ ووحشية، وهزّ ذلك الغزوُ الغاشم أفئدة كل العرب المخلصين، وأظهر المغرب العربـي والمشرق العربـي، شعائر الغضب..

وشارك الشرقـيُّ في التعبير عن تلك المأساة بقصيدة قـومية، آستهلّها بالبيت:

كيف أصبحتِ، آفصحي يـا بـلادي
فيـكِ مـا يعقـد الـرطـابَ الفصـاحـا

* * *

أسـكـونٌ كـمـا هـدأتِ مـسـاءً
أم ضجيـج كمـا انتبهـتِ صبـاحـا

* * *

قـد لمسنـا من الحـواضـر شكـوى
لـست أدري هَـلاهـلاً أم نـبـاحـا
وقـرأنـا عـنـوانَ كـلِّ شـجـون
نـشـرتـه لـنـا الـقُـرى ألـواحـا
مـا أضـلَّ الإنـسـانَ ينشـر في الأ
رضِ بـذور الشّقـا ليجني الفَـلاحـا
نـوّهـتـهُ قـسـاوةٌ وبـلاءٌ
لـقّبـوهـا: شـجـاعـة وسـلاحـا

* * *

ويختمها قائلاً:

ما (لروما) فلا آستوى عرشُ روما
فـتُلتْ ذيـلهـا وعـجّـتْ نـبـاحـا

جَبُنتْ عن نضالِ كلِّ قوي
فـأغـارت على الـزوايـا اكتسـاحـا

نطحتْ (برقـةً)، وبرقـةُ واحـاتٌ
من الـنـخـل مـا عـرفن الـنـطاحـا

* * *

وفي ذلك الهجوم الغادر نظم الشاعر هذه القصيدة الثانية ومطلعها:

هل واجدٌ لصروف الدهر ما أجدُ
هيهـاتَ لا أحدٌ يقـوى ولا (أُحُـدُ)

* * *

يا أمة العربِ أمسٌ قد مضى فَسَلي
بـشـائـرَ الـيـوم والـنـذيـر غَـدُ

إنا قطعناكِ في نبذ الخلاف يداً
وكيف تعمـل كفٌّ خـانهـا العضُـدُ

سيفٌ بكفكِ كان الخلف يصلته
فيـوحش المؤنسـانِ: الأهـل والبلد

* * *

قومٌ من العرب لم يُرِدْ حميّتَهم
خَرُّ الظبا، وعلى جمر الثرى بردوا

* * *

تروم أبناءُ (روما) أن تناضلهم
هيهاتَ، لا يستوي الطليانُ والأُسْدُ

* * *

زرعٌ لرومةَ أهدته طرابلساً
فأهزم المحْلُ أبناها بما حصدوا

* * *

يا رحمتاهُ لشملِ الكون تنزعه
سياسةٌ شأنُها التفريقَ والبددُ

كأنما الناس قد ماتت عواطفها
فأفرغوا الصدر لا قلبٌ ولا كبد

أما كفى بضحايا الجهل مجزرةً
فقام يجزر فينا البغضُ والحسدُ

* * *

٢ ـ وفي احتلال الانجليز للعراق وهيمنتهم على ثرواته ومقدراته، قال الشرقي:

بغداد، كم فيك لسعٌ بحشمة ووقارِ

كم فيكِ جسر مجازٌ لجانب مستعار
في البرلمان قرار عن اقتراحٍ وزاري
أغفى به وتمطّي فخامةُ (المستشار)

* * *

وفي قصيدته ـ الأحلام في العراق ـ:

يتحدث عن الاحتلال البريطاني وتشكيل حكومة الانتداب:

يا شواطىء العراق أيُّ الليالي
حدثتكِ الأحلامُ باستقلال

كل يوم أرى جيوشَ احتلال
في مغانيكِ من قديم العصورِ

بعد تلك الزعازعِ الحربيه
نوَّمتنا السياسةُ الأجنبيه

فحلمنا بدولة عربيه
وبِعين ونائب ووزير

قد بنينا بيتاً له ألفُ بابِ
واحتفلنا بدولة الألقابِ

أوَ هذي سياسة الانتدابِ
لا سقىٰ اللّهُ حرثَها مِن بذورِ

* * *

٣ ـ أما عن (الشام)، فقد كانت للشاعر مواقف وطنية ومشاعر أخوية، وقال فيه من الشعر الوصفي وشعر المؤاساة، كلُّ الدليل اليقين على سعة الدائرة القومية التي يدور فيها الشعر.

قال في وصف لبنان قصيدة عنوانها (كومة من لآلىء):

يـا سمـوَّ الخيـالِ، لبنـانُ أسمى

حسبُـك الـوصفُ يـا سمـوَّ الخيـال

* * *

شَعشَـعَ الليـلُ أهـلَ لبنان فـانـظر

هـل تـرى غيـر (كـومـة من لآلي)

قـد نـسينـا سـود الـليـالـي

فغيـرُ البـدرِ والفجـر لا يمرُّ ببـالي

* * *

ورأيـنـا سـمـاء لـبـنـان لـطفـاً

وانـتعـاشـاً تـذوبُ فـوق الـجبـالِ

* * *

لا تخـالـوا الفتـور في الهمم الشمّـاء

بـل تـلك فـتـرةُ الانـتـقـالِ

إن شـعـبـا وراء (صـنّـيـنَ) يـأبـى

أن يـخلّي (صنيـنَ) عنـد الـنضـال

* * *

وفي عام ١٩١٥ شنق جمال باشا السفاح، والي الشام، ممثل الدولة العثمانية، خمسة وعشرين من المناضلين العرب في سبيل الحرية والاستقلال ومحوِ التتريك.. وفي محاولة إيقاف ذلك المدّ القوميّ عند حدّه، يحرق السفاحُ لبنانَ وشقيقاته ويصلب الصناديد، كما فعل في (عالية)..

يذكر الشيخ الشاعر العثمانيين وموقفهم هذا من إخوتهم في الدين ـ العرب، الذي لا ترضاه جيرة ولا أخوّةٌ في عقيدة. فيقول:

للترك في تقطيع أسبابنا
إلى المعالي: السببُ الأوّلُ

قد حَرَّشوا النار بأطنابنا
وأوقدوا البيتَ لكي يصطلوا

كم لهواتٍ أشعلوها بنا
في ساعة الضيق لكي ينجلوا

يستنجدونا وبأحبابنا
أسيافُهم تفعلُ ما تفعلُ

* * *

شُلَّتْ، فتلك الأنملُ القاسيه
قد علّمتنا كيف شنقُ العَلَم

يا شجراً أثمر في (عاليه)
بالشرف الغالي وعالي الشمم

هـذا جـزاءُ الـنـيّـةِ الـصـافـيـه

في سـعـيكـم يـا شـهـداء الـتُهـم

فـكـيـف عُـدنـا مـرة ثـانـيـه

نـطمـع في العهـد وعقـد الـذمم..؟

* * *

خـمسٌ وعـشـرون صـليـبـاً لـنـا

إذ النصـارى آفتخـرت في صليبْ

لعـظمـهـم قـد رُفـعـوا فـوقـنـا

أهـكـذا يُـرفـع قَـدرُ الأديـبْ..؟

كـأنـهـم إذ زَلـزَلـوا أرضـنـا

صـواعـقٌ، قـد جُذِبت بـالـقـضـيـبْ

أعـوادهـم مـنـابـرٌ لـلـثـنـا

تَـنـاوشـوهـنَّ خـطـيـبـاً خـطـيـبْ

* * *

٤ ـ وفلسطين، مشكلة العرب، منذ عهد النبي إبراهيم الخليل إلى يومنا وإلى ما لا أدريهِ من قابل أعوامنا، قال الشاعر الشرقي:

يـا فـلسـطـينُ ويـا أرضَ الـجـدودْ

أنـتِ أمـجـادٌ وبـعـثٌ ونـشـورْ

حَـرْثَـنـا مـن عـهـد عـادٍ وثـمـودْ

فـرعُ أشـجـارك مـنـا والـجـذورْ

كـم حـويـنـاكِ جـنـوداً وبـنـوذْ
وسـكـنّـاكِ قـصـوراً وقـبـوزْ

أصبـح المبـكى لنـا لا لليهـوذْ
دالـتِ الـدولـةُ فـالـعـيشُ غـرور

* * *

لـطمـتْ خـدي يـدٌ مـغـلولـةٌ
آهِ لـو ذاتُ سِـوارٍ لـطمـتـنـي

* * *

مـا أبينـاكِ من التـيـه آهتـداءْ
الـهـوى نحـنُ، ونحـن القبسُ

إنـنـا نـاركِ كـنـا والـنـداءْ
ومـن الـمـعـراج كـان الـقـدسُ

لـيس مَن جـاء إلى أرضي التجـاءْ
مثـلَ قـومٍ في ثـراهـا غـرسـوا

مـا بـنـيـنـاهُ بـعـزٍّ وإبـاءْ
كـيف أصبحـنـا لـه نلتـمسُ..؟

* * *

لـطمـتْ خـدي يـدٌ مـغـلولـة
آه لـو ذاتُ سـوارٍ لـطمـتـنـي

* * *

اصحرتْ أو ابحرتْ قافلهْ
تحسب الدولةَ شعراً أو خُطَبْ

دولة اليوم يدٌ عاملهْ
شدَّ زنديها حديد أو ذهبْ

يا رفاقي إنها نازلهْ
أذهبتْ لمعةَ أيام العربْ

لاجيءٌ في كفِّهِ زاملهْ
يأخذ السلّة منكم والعنبْ

* * *

لطمت خدي يدٌ مغلولةٌ
آه لو ذاتُ سوار لطمتني

* * *

معملٌ أو مصنع أو مختبرْ
إنها أفضلُ من الفِ احتجاجْ

سَفَهاً تقذف قومًا بالأكَرْ
فِئةٌ تسكن بيتاً من زجاجْ

ثورة الشعب جهود لا سَمرْ
وجلاد مستحرٌ لا عجاجْ

انقلاب شاملٌ درءُ الخطرْ
عن بلادي لا آهتزازٌ وآرتجاجْ

* * *

لطمت خدي يدٌ مغلولةٌ
آهِ لو ذاتُ سِوار لطمتني

* * *

وفدُكم ـ إن كان نفعٌ في الوفودْ ـ
مِنجَلٌ أو لولبٌ أو مطرقَهْ
حشِّدوا عمّالها تحتَ البنودْ
حبّذا الجيشُ فحيّوا فرقَهْ
وافتحوا المصرف موفور النقودْ
بوثوقٍ يتعاطى وَرَقَهْ
وإذا صحتم: لنا البيتُ يعودْ
فآملكوا مفتاحَهُ أو غَلَقَهْ

* * *

لطمت خدي يدٌ مغلولةٌ
آهِ، لو ذات سوار لطمتني

* * *

٥ ـ أما عن مصر فقد شارك الشرقي في وصف النيل والأهرام، والحواضر والمحلات في القاهرة، وفي ذكر أهل مصر وما مرّ بهم من مآسٍ وما قاموا به من جلائل وبطولات، في مصاولة الطبيعة والغزاة وطغيان الخالد النيل. ومن أشعاره في مصر:

يـا مـصـرُ نِيلُك كـوثـر الـنُـهـرانِ
يـجـري فـيـسـقـي جـنـة الـبـلدانِ

* * *

ومـنـارةُ الـتـاريـخ فـيـكِ تـألّـقت
فَـزَهـت أشعـتُـهـا بـكـل زمـانِ

من عهـد (خـوفـو) فيـكِ أكبرُ معهـدٍ
لـلفن يُـعـجـز رِيـشـةَ الـفـنّـانِ

رمـز الـجـمـال بـيـوسفٍ خـلّدتِـهِ
وزهـا بـسـعـدٍ فـيـكِ رمـزٌ ثـانـي

* * *

وأرى وسـامَ الـعـبـقـريـة لامـعـاً
في صـدر نيـلِكِ واضـحَ الـبـرهـان

في الشـرق تيجـان ولكن لـم تـزل
فـي مـصـر تـلمـعُ درّة الـتـيـجـان

* * *

جُرح العراق وجرح مصرٍ واحد
فإذا نهضتِ تضمّدَ الجرحان

بين العراق وبين مصرٍ شقّة
وبسعينا يتقارب المِصرانِ

يا وردَ بستان العراق يضيمني
أن تكثر الأشواكُ في البستان

أنا أشتهي (للصالحية) مثلما
في (الأزبكية): دامتِ الأختانِ

* * *

قال الشاعر هذه الأبيات عام ١٩٢٩، يذكر فيها من تاريخ مصر الفرعوني، ومحلة الصالحية في بغداد ومحلة الأزبكية في القاهرة..

وفي هذه الأبيات يحسّ القارىء بأنَّ فيها دفقةً من أحاسيس قومية سامية نابعة من أصالة نفسٍ عربية متشبعة بها روح الشاعر..

إن المقارنةَ الواردة في هذا البيت:

أنا أشتهي للصالحية مثلما
في الأزبكية ....

* * *

إشارةٌ واضحة غير ملغّزة، إلى وحدة أرض القطرين الشقيقين، مصر والعراق، وإلى أنهما بلد واحد، تاريخاً وآمالاً ومصيراً..

ومثل هذه الأبيات وبمعناها الأمل المتفائل بوحدة الأمة العربية وتقدمها لتحقيق الشوط الحضاري الكبير الذي سينير دروب الحرية لينعم بها كل فرد في كل الوطن العربي.. قال الشاعر عام ١٩٢٧:

هيا إلى الرطبة فهي الوريدْ
إلى حياةٍ بالمنى عامره
أضحى الرمادي بحيال الصعيدْ
واتصلتْ بغداد بالقاهره
قد تم تعبيد الطريق الجديد
فاستقبلي القوافل الحائره
استقبليها بلذيذ النشيد
طيارةً، سيارةً، قاطره

* * *

والرطبة مدينة حدودية غربية عراقية والصعيد منطقة في مصر بين جنوبي القاهره وشلالات أسوان.. والرمادي مدينة مهمة على الفرات ـ مركز محافظة.

والشاعر الشرقي هو القائل:

خُذِ الشعر من عفو القريحة إنه
إفاضات وحيٍ لا اعتصارٌ وتطيرُ

* * *

ولأجله نجدُ في ذكره مصر وبقاعها وكل بقاعِ الوطن العربي الكبير، إن قلب الرجل يتدفق حباً لكل تلك البقاع وأمانياً لكل الأقطار

العربية خيّرةً لكل قطر عربي، وآمالاً حسنةً صادقة لكل سكان المنطقة ولكل من أبنائها خارجها.

وينطلق لسانه ـ شعراً ونثراً ـ بالدعوات المخلصة للوصول ـ انتهاء ـ إلى الوحدة ورفع الحواجز المصطنعة عن حدود وهمية رسمتها يد أجنبية، لتضعيف التجزئة وتهوين قوة الاتحاد والتعاضد، تحت خيمة الوحدة الموجودة سالفاً والمفقودة حالياً والمأمولة في الغد القريب..

إن إفاضات الشرقي السياسية عن ماضي العرب وحاضرهم وقابل أيامهم، تنحدر صافية صادقةً عن قلب وفكر سليمينِ متفتحينِ على التاريخ والدنيا وتطوّرِ أحوالها وتغيرّ صور حياة أبناء الأمة، ورهافة طموحاتهم في المساهمة الجادة بقطف ثمار العقل البشري من الأفكار النيرة في السلم والتآلف وتجميل الحياة بكل المخترعات والمبتكرات التي تخدم الإنسان في متطلباته الروحية والمادية..

* * *

والطائفية المذهبية أُرضةٌ تأكل عقولَ الناس وتنخر وحدتهم وتهشّ بنيان أوطانهم، وقد استنكرها الشرقي في كل قطر عربي أو مسلم وفي كل أقطار العالم بأشعار كثيرة منها:

طالعتُ وجهَ بلادي   بقبضةٍ وانبساط
لو أخلصتْ لرأينا   مسعى بلا إحباط
يا مصر غنّي عراقي   بنغمة (الأقباط)

* * *

وأرسل الشاعر الشرقي قصيدة من أربعة عشر بيتاً، إلى شاعر

مصر أحمد شوقي بمناسبة زيارة طاغور شاعر الهند إلى مصر عام ١٩٢٧ ـ يستحثه على الحفاوة به ويقول له:

فـي الأزبـكـيـة شـيـخ ... مـا بينَ جـمـعٍ غفيـرِ
اخفض جنـاحـك وانـظر ... لـه بـطرف حـسـيـر
أطـائـر الـهـنـدِ هـذا ... الـطاووس بـيـن الـزهـور
شـوقي ضميـرك مصـرٌ ... فـأسمْعهُ صـوت الضمير
وقـل سـلامٌ لـمـصـرٍ ... جـمٌ عـلى (طـاغـور)
إجـلسْ كـشـيـخ وقـور ... بـجـنـب شـيـخ وقـور
واسـتـعـرضـنـا مـصـر والـهـنـد مـن جـمـيـع الأمـور
طـوفـا عـلى الـشـرقِ فـي نـظرةٍ وفـي تـفـكـيـر

* * *

وقبل أربعة أعوام من زيارة طاغور الهند لمصر، كان وطنيو مصر قد تخلصوا من طاغية استعماري، تحكم في رقاب أحرارها وفي حريتها واقتصادها وثقافتها، ووقف في سبيل تقدمها ورقيها، . . (وهو السير لي ستاك) . . فقامت قيامة لندن، وأصدرت أوامرها بنفي الزعماء السياسيين والوطنيين من وطنهم مصر. . مما هزَّ الضمائرَ الحية في الدنيا. . ومنهم الشاعر الشرقي الذي قال:

سعـدُ! كم عـاشت ومـاتت فكـرة ... أتـرى أن لـيس لـلعـلم ثـبـاتْ
تـرجـع الـنـاسُ إلـى أخـلاقـهـا ... كـلـمـا قـد أحرجـتـهـا الأزمـات

* * *

وثباتُ الشرق في نهضته
لم تُعزَّز بتروٍ وأناةْ
سدّوا الخطو فكم من حفرة
في مجارينا وكم من عثراتْ
أيُّ شيء أعِظُ الشرقَ به
بعدما قد مُلِيءَ الشرقُ عِظات
تلك (مصر) مذ سعت في أمرها
سَنَةً، قد أخّروها سنواتْ

* * *

قد يقول الشاعر، أيُّ شاعر، البيت والبيتين، أنيناً يائساً من خير مرجوٍ أو من استرجاع صفة مفقودة، أو حرية مضاعة.. وهذا اليأس، ليس أصيلاً في نفس الشاعر أو متأصلاً في فكره، إنما يأتي به تعبيراً عن أسى في صدره، وتحريضاً على استعادة حرية مسلوبة..

وإني لا أرى الشاعر الشرقي يخاطب مصر وأبناءها و(سعدها) بلسانٍ متشائم وشعر يائس تماماً من النهوض من الكبوات، ومن بعثٍ بعد موات مؤقت.. حين يقول:

يا صِواعَ العزيزِ قد سُرقتْ مصرُ
ولم تُفتَقدْ كفقد الصواعِ
ارتقت عندنا الصناعةُ حتى
كل قولٍ وكل فعلٍ صناعي

* * *

وُلِـد الـنـاس مـطلقـيـن ولـكـن
قـيـدتـهـم سـلاسـل الاجـتـمـاع

وهو الشاعر الذي قال وردّد:

إن يحابي شاعـرُ القوم فـإنـي لا أُحـابي
إنـمـا هـذي الـمـبـادي طـرقٌ لـلاكـتـساب
وطـنـي كـم فـيـك مـن زغـردة أو مـن نُـعـاب

* * *

ومن الحسّ القومي لدى الشاعر ترديده حواضر الأقطار العربية ومواقفها، مقرونة: الغربية منها والشرقية، الحجازية واليمانية، الجزائرية والنجْدية، المصرية والعراقية، يوردها علامات بينة على وحدة الوطن العربي واعتزازِ أهله بكل أجزائه، دون التعصب الأعمى لقطرٍ أو مدينة أو معلم..

وكان الشاعر قد ركب للطَرَدِ قبل خمسين عاماً، بسيارة كانت تسبق الغزلان فتسد منافذ النجاة بوجوهها، وتطاردها حتى تجهدها تماماً وتعجزها عن الجري الغزلاني، وتغدو صيداً سميناً جميلاً، يتوسّل بعيون تطلب الرحمة، من الصائد، في براري العراق.. لكن الشرقي في وصف تلك الرحلة الصيديّة، يطلع قصيدته باسم مصر وصعيدها مقروناً باسم العراق وفراته وبقاعٍ عربية أخرى:

تـركـتْ مـصـرَ جـازيـاتٌ مـن
السـرب، مسـاءً وأصبحت في زوردِ

في سـواقي الفـراتِ اغتسلت صبحـاً
وعــصــراً تـيـمـمَّـتْ بـالـصـعـيـدِ

* * *

مــرَّ فــي (تــدمــر) يــريــد ســؤالاً
عن سليـمـان هـدهـدٌ من حـديـد

* * *

رِغْـنَ (نجـداً) لـمـا رفـلنَ بـنـجـدٍ
ســائـرات في مــوكب (ابن السعود)
ولـتـعـبـيـد قـومـنـا حـفّـزوهـا
لـتجـوز (الـدهـنـا) بـلا تـعـبـيـدِ
أرعـيـلٌ مـن الـشـيـاطـيْـنِ غـازٍ
أرض (عـادٍ) ونـاشـدٌ عـن (ثمـود)
هي غـولٌ في العَـدْوِ تنـزو جبـالاً
وهـي جنٌّ تـخـاطـفـت فـي الـبـيـد
ذهـبت دولـة الـذلـول بـ (صـنـعـا
ء) وولّـت أيـامُ خـيـلِ (زَبـيـد)

* * *

إن الشائع الأهم في الحرب العالمية الثانية هو أن معركة (العَلَمَين) في صحراء مصر الغربية ١٩٤٢/١٠/٢٣ وليس من الشائع أو المعروف شهرةً، اسم معركة حامية بين (ويفل) القائد الحليف و (رميل) الألماني،

في صحراء مصر أيضاً، وفي مكان يعرف (بوادي العكاريت).. وفيها قال الشاعر الشرقي قصيدة طويلة (٣٩ بيتاً) مطلعها:

لا تـمـعـنـنَّ بـتـوبـيـخٍ وتـبـكـيـتِ
القـومُ قد شـربوا من نهـر (طـالـوتِ)

* * *

وقـايـعٌ لا يـطيق النـطقَ شـاهـدهـا
إلا بـتـعـتَـعـةٍ مـنـه وتـعـنـيـتِ
وادي (العكـاريت) ما خصَّتـكَ محنتُها
فـالأرضُ أجمعهـا وادي العكـاريت
أَضحتْ لـ (ويفلَ) أو (روميلَ) معتركاً
خـرائـب لـبـخـيـت أو لـمـبـخـوت

* * *

حربُ الشياطين في (الواحاتِ) حربُهم
وفي التـلال اشتهـوا حـرب العفـاريت

* * *

وقـائـدٍ من صبـايـا الحـرب تُـطرِبُـهُ
كبـرى الوقـايع ذات الصـوت والصيتِ

* * *

ما كاد يعـطس حول (النيـل) عطسته
إلا وشـمـتـه فـي شـر تـشـمـيـتِ

(أي قيل له: لا يرحكمكم الله).

عرشُ الكنانة يا فرعونُ عنك مضى
فما لفرعونَ فيها غير تابوتِ
يا راكضين لمصرٍ دون تؤدةٍ
هلا تريَّثتمُ في خطِ (ماريت)
حيفا تولت طيور البوم ناكصة
وكم تمنّت ورامتْ برجَ بيروتِ
في طبرقٍ صفقةٌ للخسر تُشبهُها
مرارةٌ حسرة ظلّت بـ (جيبوتِ)

* * *

إن القيادة في الصحراء معجزةٌ
يوحي بها فنُّ هاروت لماروتِ

* * *

وللشرقي رباعيّةٌ أشاد فيها بتقدم مصر ثقافياً وزراعياً وصناعياً، وقارن بين ذلك وبين حال العراق الشقيق عام ١٩٢٦.. قال:

تنوّرتْ مصر بالمشاعلْ
وفي العراق بصيصُ نورِ
فزرعُ مصرٍ غدا سنابلْ
وزرعنا، بعدُ، في البذورِ
برغم مجدي عصرِ المغازلْ
سما فخاراً على العصورِ

تـربّـع الـمـجـدُ في الـمـعـامـلْ
لا فـي الـدواويـن والـقـصـورِ

* * *

وكما رأينا، فإن الشاعر كان يتخّذ من الزعيم الراحل سعد زغلول مثالاً للرجل الوطني المناضل الحر، ونموذجاً للرجل الأمل. ونادراً ما ذكر مصر والنيل ولم يذكر سعداً. . وقد قال في رباعياتِ مع البلبل السجين:

قـال لي بلبـلٌ على الغصن يـشـدو
زاهـيـاً منعـمـاً بـزهـر الـخـمـيلَهْ
مـثلمـا أنـتَ في مـراثـيـكَ يـبـدو
«كـن جميـلاً تَـرَ الحيـاة جميلهْ»
كـلُّ جيلٍ يـا (مصرُ) مـا فيه سعدُ
حـاولـي تـخلقيـنَ سـعـداً وجـيـلَهْ
لا أرى الـفـضـلَ فـيـه أخـذٌ وردُّ
لـو هتفنـا بـالشعب: يـا للفضيلهْ. !

* * *

ورباعية أخرى ـ رقمها في الديوان ٢٩ :

لـيـت الـذي أخـذ الـنـبـاهـةَ مـن بـلادي رَدَّهـا
شـقي الـعـراق وقـد سعتْ مـصـر فنـالـت (سعـدهـا)
يـا مـصـر إن الأزبـكـيـةَ قـد جَـلَت لـكِ وَردهـا
فـآسأل أفـاعي الـرافـدين عـلامَ تـسـلَخُ جـلدهـا

* * *

وهنا، في هذه الأبيات والقصيدة كلها، يطفو المزج بين أفكار خاصة بالشرقي في وطنه الصغير، العراق، وبين ما تتخبط الأمة العربية فيه من إرهاصات ومن أزمات.

وفي تفكرّه بالعراق انطلاق من شعور بما يعانيه العراقيون من مخانق التفرق والاختلاف والتنايز.

وفي ذكره مصر والأزبكية عرض لما فعلت زعامة سعد زغلول، بالجزء العزيز من الوطن الكبير، وما فعلته مصر بسعدها من تزعيم مهيب وتقدير فائق، واحترام كبير، والشرقي بهذا المزج يستحث الشعب العربي، في كل أقطاره، على خلق الزعامات الوطنية الصادقة وتقييمها وتقديرها، وتسليم دفة القيادات لها، فرداً كان أم فئة أم حزباً. في خدمة الشعب والعمل على تخليصه من أسباب شكاواه: السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية..

□ □ □

الشرقي عالميا

إن الرجل الشاعر الشرقي كان عراقياً عربياً، تردّد ذلك في أكثر أشعاره وأناشيده، وكان بعد هذا الانتماء، إنساناً تخطت إنسانيته حدود وطنيهِ الأصغر والأكبر إلى الإنسان في غيرهما، وخارج حدودهما، يشارك أقطاراً أجنبية والطيبين فيها مشاعر أفراحهم وأحزانهم، ويلوم غير الطيبين فيها على انحراف أو قسوة أو عتوٍ على الغير. .

ومن أوائل قصائده قصيدة بثمانية وعشرين بيتاً نظمها سنة ١٩١١. . منها:

جـهـلـنـا عـالَـمَ الأحـيـاء قـدمـاً
فعشنـا مثـل مـا عـاشـوا خـداعـا

أمـا عـثـرتْ بـسـر الـكـون قـومٌ
أكـلُّ النـاسِ قـد خلقـوا رِعـاعـا

أ (هكسـلُ) هـل كشفتَ لنـا لثـامـاً
و (تنـدلُ) هـل أزحتَ لهـا قنـاعـا

(وتوماس هنري هكسلي عالم بيولوجي، ولد في انكلترا سنة ١٨٢٥

وتوفي سنة ١٨٩٥ . . وكان شديد الحماس لنظرية ابن وطنه عالم الطبيعة البريطاني مؤلف كتاب (أصل الأنواع) الذي ينظّر سلسلة متطورة لحياة الإنسان والحيوان والنبات أيضاً. وقد عاش دارون من سنة ١٨٠٩ حتى سنة ١٨٨٢).

أما (تندل) فهو الفيزيائي البريطاني الذي قضى أكثر حياته منكبّاً على دراسة الضوء.. وقد ولد جون تندل سنة ١٨٩٦ وتوفي عام ١٩٦٣ . .)

* * *

في أوائل القرن العشرين، وبعد الحرب العالمية الأولى، كثر الدعاةُ إلى السلام العالمي، في أوروبا وأميركا وآسيا.. ومنهم السيد (ستيد) الأميركي، الذي لم تلتهمه نار حرب، إنما غرقاً في المحيط الأطلسي وهو على ظهر باخرة نقل تجارية إلى أوربا، صدمها جبل جليد وأغرقها.. فانهمرت دمعات ساخنة من عيني الشاعر الشرقي، منها:

أداعيةَ السلام وقد تداعى
عليك سلامُ أرواح الجنودِ

* * *

شديد العزم كنت وأنتَ حيٌّ
ومُتَّ وأنتَ في عزم شديدِ

* * *

أجوهرةٌ على الأمواج تطفو
محالٌ، بل تعاجِلُ بالركود

لئن صعدتْ بك الأمواج يوماً

فقد عوّدتَ نفسَك بالصعود

* * *

هتلر (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) زعيم الحزب الوطني الاشتراكي النازي في جرمانيا، رأس الدولة الألمانية عام ١٩٣٤ خمس سنوات أشعل بعدها الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥). وقد لاقى العالم منها ومن شاعلها مصائب مروعة، وآثاراً مدمرة. كان لها وقع كبير وهَمٌّ ثقيل على نفس الشاعر، صوّرهما بقصيدة رائية ساكنة في خمسين بيتاً، أقتطف لك منها:

رِيعتِ الأرضُ فقالت للقمرْ

سَعُدَ الطالع، كم يشقى البشرْ

جهلُهُ قد كان شراً واحداً

وآبتلاه علمه في ألف شرْ

كرمت طينتُهُ لو دُحرِجتْ

عوضاً عنه حصاة أو حَجَرْ

* * *

كل هذا الويلُ يا باعثه

لُعِنَ (الدنزغُ) من أجل ممرْ

سقطةُ العالمِ من قادته

أركضوه، وهو أعمىً، فعثرْ

* * *

ونــظامٍ مــن حــديــد ودمٍ
يــجــعــل الــعِــلمَ قــضــاءً وقــدرْ

* * *

ووصف فيها الطيّار وغاراته وصفاً مريعاً:

عــنــده مــا شــفــعــت شــيــخــوخــةٌ
وقــســا أن يعــصــمَ الــطفــلَ صِــغَــرْ

أشــجــاعٌ قــاصــفٌ مــرضــعــةً
حــضــنــت طــفــلاً عــلــيــه الــشــديُ دَرْ

هــدهــد الــطفــلُ على الــشــدي وقــد
مــسّــتِ الــشــديَ شــظايــا فــآنبــتــرْ

* * *

كان قوله هذه القصيدة عام ١٩٤٢.. وفي ١٩٤٤ نظم الشرقي قصيدة حائية ساكنة من ثلاثين بيتاً يداعب فيها (الهر هتلر) بمناسبة ردة الحرب على ألمانيا، ومحاصرة جيوش الحلفاء لبرلين عاصمتها ـ المقسّمة اليوم شرقية وغربية ـ.. منها:

هــتــلــر والآن يَــطــيــبُ الــمِــزاحْ
أشــاكــرٌ راسُــك هــذا الــنــطاحْ..؟

* * *

حــتــى إذا قــلّبَ أطــرافــه
ولــم يجــد فــيــهــنَّ وجــهَ الــنــجــاحْ

فَشّ آنتفاخ الهرّ مستثقلاً
من ذيله، يسحبه في صياخ

* * *

ومستبيح الشرق والغرب لا
تحزن على (ريخكَ) إذ يُستباح
يا أيها الكبشُ قد إستأ
سدَ المرعى فَهرولْ راجعاً للمراح

* * *

في جنوب جزيرة هونشو، كانت مرسىً فاتحةً صدرها لجوّابات البحر، وكان عددُ سكانها أكثر من نصف مليون نسمة ينعمون بالهدوء والأمن والسلام، يعملون على خدمة الماخراتِ الغاديةِ الرائحة، وفي نسج اللُّباس والحرير.. وفي الصناعات الكيماوية والدوائية، .. وفي يوم مشؤوم، كل الشؤم (٦ آب ١٩٤٥)، صعقتها بيضة شريرة لا راحمة، نزلت عليها من طائرة أميركية، أزهقت أرواح ثمانين ألف إنسان بريء غافل، وجرّحت، بل شوّهت وأعلّت خمسة وسبعين ألفاً، من مختلف الأعمار، فهزَّ رميُ القنبلة الذرية على (هيروشيما) عواطفَ الشاعر الإنساني هزاً عنيفاً، عبّر عنه بأربعين بيتاً بليغاً في التأثير والتعبير.. منها:

يا طاقةَ الذرّةِ المجهولِ عالِمُها
أركبتِ عالَمنا أُرجوحةَ القدرِ
قل للمغنينَ بالنصر الذي ربحوا
كم تضربونَ على عودٍ بلا وترِ..!

تنشـدون للعيدِ والصـاروخ حـولكم
هيهـاتَ أَوَ يُنقلَ الأضحى إلى صفـرِ؟

ويـلُ الـعـواصمِ إن بُثَّت قـنـابـله
وكـلُّ قـنبـلـةٍ في كـفِّ منـتـحـرِ

سيـرجعُ القـوم (بـدواً) في مفـاوزهم
ويصبـح العِلمُ: لـلتـاريـخ والسِيَـرِ

أَذرةٌ يـنـسِفُ الـدنيـا تـفـكّـكُـهـا
تـطوي، وتجـرفُ لم تُبقِ ولم تَـذَرِ

* * *

وأَختمُ حديثي عن عالَمِية الشاعر الشرقي ومدى آفاق شعره الإنسانية، بأبياتٍ رباعية قالها عام ١٩٤١ يخاطب فيها أوربـا الغارقة في بحر من دماء أبنائها أسالَتْها حربُ هتلر.. منها:

أوربـا ربـةَ الـشـعـر أتـى يـنـدبـكِ الـشـعـرُ

* * *

سَلي الهـدهـدَ عن بـاريسَ لا عـن قـصـرِ بـلقـيسِ
أَفـي تـفـاحـةِ الـجـنَّـةِ يـبـدو كـيـدُ إبـليسِ
سَـلي هـل نُـثِـر الـوردُ عـلى نـشـرة طـاووسِ
أمِ الـقـصـفُ عـلى رأسِ عـروسِ حـول عِـرِّيسِ

* * *

أَلِـلطوربـيـدِ والـمـهـدادِ حُـورٌ فـي الـمـقـاصـيـرِ

هداكَ اللَّه يا طيّارُ رِفقاً بالقواريرِ
أبينَ المهدِ والنهدِ مجالٌ للمغاويرِ
لَعاً مكشوفة الساقين من عثرةِ مذعورِ

* * *

دوّت صفّارة الإنذار بين القصر والقصرِ
فكانت نفخةُ الصورِ وكانت ساعةُ الحشر
وبات الطفلُ في قُطرٍ وأمُّ الطفل في قطر
وربُّ الأفرعِ الشامخِ ضيفُ الضبِّ في جحرِ

* * *

حصونُ الجوِّ تنحطُّ على غوّاصة البحرِ
فيا مملكةَ الحوتِ ويا مملكةَ النِسرِ
كذا الدنيا وأهلوها تصكُّ الشر بالشرِّ
ومن ينجُ من البحر فلن يفلتَ في البَرِّ

□ □ □

الشاعر والفُرس

ليس انحرافاً تمسُّك الإنسان بجذوره القومية، إلا إذا امتدَّ ذلك إلى الاعتداء على أبناء القوميات الأخرى أو على حساب أقوام آخرين..

فالقومية شعور بواقع محتوم، يسعى كل امرىء إلى الاعتزاز به، وإلى الإخلاص والتفاني في عمليات جلب الخير إلى قومه ودفع الضر عنهم وعن جميع أوطانهم وأقطارهم.. دون ذبّ الشر إلى سواهم وإنزال الضرّ بغير أوطانهم وأقطارهم..

والشاعر الشرقي معتزّ جدُّ الاعتزاز بعروبته محبٌّ لبني قومه حباً جَمّاً أنىّ كانوا وعاشوا، معّبرٌ عن هذا الاعتزاز ومشيّرٌ إلى هذا الحب بشعر صادق وخلجات حارة، كما مرَّ بنا عند ذكر تغنّيهِ بالعراق وفلسطين ولبنان والشام والحجاز ونجد واليمن وشمال أفريقية ــ ومصر خاصة ــ وكل قطر من الأقطار العربية في آسيا وأفريقية..

وقد قلنا أن الشاعر الشرقي، نجفي، عراقي، عربي، فلنسمعه ينشد لوادي النجف:

١ ــ وطني المفدّى أيُّ سرٍ
في ثراكَ الطهرِ عالقْ

٢ ـ مرّت بصخرتك القرونَ
سريعةً مَرَّ الدقائقْ
٣ ـ زاهي الحدودِ منيعةً
بِبَني المدارس والخنادقْ
٤ ـ ساعٍ لرفعة شعبه
بلد المنابر والمشانقْ
٥ ـ ولواؤه (القومي) فوق
شعارِهِ الوطني خافقْ

ونسمعه يقول لدمشق عام ١٩٣٩ ـ وقد فاز تنّور حرب هتلر في أيلولها:

١ ـ تركنا شُمَّ لبنانٍ ولاحتْ
دمشقُ وجارها الجبلُ المنيعُ
٢ ـ وعرسُ دمشق في أيلول تزهو
به الدنيا أصادقةً خدوعُ
٣ ـ شعارُكِ يا دمشقُ فكلُّ رهطٍ
أضاع شعار (أمتهِ) يضيعُ
٤ ـ هنا القومية اعتصمتْ وأثّتْ
أصولُ للعروبة أو فروعُ
٥ ـ كما يجلو الربيعُ الوردَ غضّاً
جلت أمجادَنا هذي الربوع

٦ ـ فكيف السبحــةُ انتشــرت وضــاع

الــرعيــلُ وشُتِتَ الشــمــل الجـمـيـعُ

٧ ـ لـقــد لسعتْ مـبــادؤنــا رجــالاً

فـشــلَّ كيــانـنَــا العـضــوُ الـلسيــعُ

* * *

ومواقف الشاعر الشرقي من أصدقاء الأمة العربية ومن أعدائها واضحة صريحة، وليست مقتصرة على حاضر الأمة بل شملت ماضيها القريب والبعيد..

وموقفه من فُرس إيران لا تداخله مجاملةُ الجيرة أو تماثل المذهب الديني، .. فقد ذكر، بتقدير بعض رجال الفرس الأدباء والشعراء كحافظ وسعدي، (وأولهما حافظ شيرازي شمس الدين محمد الشاعر الغنائي الفارسي العفيف في وصف مشاهد الحب والغرام وقد ولد عام ١٣٢٠م وتوفي عام ١٣٨٩م.. وثانيهما سعدي شيرازي (١١٩٣ ـ ١٢٩١) هو الشاعر الناثر الإيراني الذي تعلّم في بغداد ـ في المدرسة النظامية، وكان من مريدي الشيخ عبدالقادر الكيلاني).

يذكر الشيخ الشرقي مسقط رأسيهما ـ شيراز ـ وهو يذكر الشاعر أحمد بن الحسين، أبا الطيب المتنبي:

يـا صـوت أحمــد زدنــا روعــة فلقـد

أسمعْتَنــا في القــوافي صــوتَ رئبـالِ

نــاغى الثــويّــةَ من (شيــراز) عنَّ لــه

ـ في شعب بوّانَ ـ ذكرُ الأهلِ والآلِ

لحنُ العروبة وهَاجَ بطابعه

في برِ فارسَ يُذكي جمرة الصالي

* * *

وقال فيهما:

أيها البلبلُ المعلّقُ في السجن

سلامٌ هيجّتَ كامنَ وَجدي

يا نديمي في مجلسِ الشرب قل لي

كيف خلّفتَ مجلساً للوردِ

نسيَ الروضُ (حافظاً) أو تناسى

فَأَعِدْهُ عليه يا طيرَ (سعدي)

جوهر الفردِ أن يقدّم للمجموع

من روحه جواهرَ فرد

* * *

أما أشعاره في حكام إيران الذين لم يرعوا للجيرة حق، واهتبلوا فرصَ ضعف الأمة العربية وجاهليتها ثم تفرقُّها وتشرذمَ أبنائها، فأغاروا على ثغورها ومدنها، وأنعشوا نفوسهم بالسيطرة واستعباد المنطقة وأهلها وبالأحلام النرجسية في توسيع الامبراطورية الساسانية نحو الغرب، كما فعل كورش واجتاحها إلى بطن مصر وعبر القناة..

وقال الشرقي:

آلَ ساسانَ والعراقُ اكفهرّا

كيف أحلامكم بإيوان كسرى

إن تـاريـخـكـم تـأبّط شـرّا
غِبَّ تلك الأحـلامِ مـن (أزدشيـر)
نـقـلتـنـا أحـلامـنـا لـلمـدائـنْ
فـنـبـشـنـا خـزائـنـاً ودفـائـنْ
شبـحُ (الموبذانِ) في ذي الأمـاكـن
خـاشـعٌ مـاثـلٌ لـدى (سـابـور)
يـوم (ذي قـارِ) أنـتَ فـي الأيـام
حـلمٌ طـيّـبٌ مـن الأحـلام
ظـفـر الـعـربُ فـيـكَ بـالأعـجـام
وبـدأنـا بـالانـقـلاب الـكـبـيـر
إن حـرب الأحـلام في (القـادسيـةْ)
نَـكـسَّـتْ كـلَّ رايـة فـارسـيّـةْ
فـنـهـدنـا لـطـيـسـفـونَ سـريّـةْ
وإذا الـغـابُ ما بِـهِ مـن زئـيـر

* * *

وقال أيضاً:

والصـراعُ القـوميُّ في الحِيـرة البيضـاء يحتـرُّ بين كـرٍ وفَـرِ
والـمثنى مشـمّـرٌ وبنـو شيـبـان مـزهـوةٌ بـنشـوةِ نـصـرِ
وجلولاءُ زغـردت لعـروس الحـرب مـزفـوفـةً ببِيضٍ وسُمـرِ

* * *

يــا عـصــوراً ذكــراكِ تعصــر قلبـي

لــو بسُكـرٍ تَـعِنُّ لـي طــارَ سُكــري

* * *

وقــال:

وتــحــدّى كـــســرى قـبــابَ إيــادٍ

وتــخــطّى مــضــارب الأقــيــالِ

طــامــعٌ يـحسبُ الـجـزيـرةَ قـفــراً

ويــظنُّ الــفــراتَ لــمــعــةَ آلِ

وإذا رايــة بــذي قــارَ تــعــلو

فــيــحسُّ الأيــوانُ بــالاخــتــلالِ

وطغت مــوجــةُ الجــزيــرة فــالأرضُ

اضــطرابــاً تــخــورُ بــالــزلــزال

وأفــاقــت تــحــدُّ أنـيــابَ أغــوالٍ

وتــلـتــاع فــي عــيــون سـعــالــي

* * *

ويقارن الشاعر الشرقي بين الانتداب البريطاني على العراق الذي فُرض بعد الحرب العالمية الثانية، بصكٍ مزيف لا رصيد له من الحق ولا صدقاً في المواعيد، وبين النفوذ الفارسي ـ قبل الإسلام ـ على العراق، والذي يسميه الانتداب الأول، ويسمى الانتداب البريطاني الانتداب الثاني، ويذكر وفود العرب التي كانت تقدم على المناذرة ـ

ملوك الحيرة العرب ـ وعلى أكاسرة الفرس، وعدم تكرار الوفادة على جنرالات الانجليز وكباتنتهم.. فيقول:

كـان لـلفـرس انـتـداب عـلى
الـعـرب فـي غـابـرِ الأزمـان

وتَـعَـدُّ عـلى الـجـزيـرة بـادٍ
نـشـأت مـنـه حِـيـرةُ الـنـعـمـان

يـا وفـوداً قـد مثَّلت شـرف الأخـلاق فينـا وقيمـةَ الإنسـان

رجـعـت كـرَّةُ الـزمـان ولـكـن
لا وفـودٌ لـلانـتـداب الـثـانـي

* * *

سَـلِ الـطاق وهـل أبـقى لنـا (كسرى) سـوى الطاقِ
بـقـايـا آلِ سـاسـانٍ غـبـارٌ فـوق أطـبـاقِ

□ □ □

بل ذات الإنسان، أي إنسان، ذكراً كان أم أنثى، طفلاً أم شيخاً هرماً، منذ بدء إنسان إلى نهاية إنسانيته على وجه الأرض..

وتمر هذه الذات بعدة مراحل، تبدأ من نطفة في الأرحام..: جنينٍ، ثم وليدٍ ثم صبي ففتى فكهلٍ فعجوز... فالانتهاء عائداً إلى بطن الأرض، يرافقه الجزء الغامر شخصيته الذي كان يقيِّم له كل قِيَمِ الأشياء والحوادث والأمور، ويحلّ له المشاكل ويدفع عن ذاته المسَّ بها...

هذا الجزء الهام يسميّه علماء النفس (الأنا) من ضمير المتكلم أو المتكلمة، المفردين فقط ـ أنا ـ صيغ منها، معرفاً بأداة التعريف (أل)، رغم أنها ضمير منفصل، والضمائر كلها (معرفة) ولو كانت (مستترة) وذو الأنا الذي يسير وفق خطوات المذهب الحياتي الواقعي، يحاول أن يكيّف نفسه وشخصيته حسب البيئية، داخل مجتمعه أو خارجه، وهو القوي القادر على التوافق الاجتماعي والتكيّف البيئوي، وبهذه القوة، وبهذا التمكين، يُبعد ذو الأنا نفسه عن الأمراض والعقد النفسية وهزّات العصاب وشرود الذهن..

وحين يضعف (الأنا) ويخضع لمشيئة الغير من البشر، إما كلياً، عملاً ورأياً، أو جزئياً، لسبب أو آخر من أسباب العيش والبقاء، يصبحُ عَرَضاً للتدهور، تسقطه الصدمات، ويجانفه الاحتمال، وتنهار فيه قوة الصمود، وتتضاؤل فيه روح التحدي والنضال في سبيل «الأنا». .

* * *

والأنا في شاعرنا الشرقي بدأت متوازنة مع ما مرَّ به في مرحلة طفولته ومرحلة نضوجه، وهو في تفاعلٍ مستمر مع صورِ البيئة في النجف والشطرة وبغداد، وصور ما تـوارثه من عقـائد وسلوكيّـات ـ تتداخل العمامةُ والشيخيَّةُ فيها إلى حدٍ غير بعيد ـ خرج منها الشيخ علي الشرقي بشخصية ناضجة، متميزة بثلاث صفات بدت واضحة غير متقمصة في أدبه وشعره ومشاركته في الحركات الوطنية والاجتماعية وفي وثاقة علاقاته مع عائلته، حين يصبح مسؤولاً عن عائلة. ملتزماً بكفالة الحياة السعيدة لأفرادها، وثالثها ابتعاداً عن سبيل التسيطر والتسلّط لإشباع رغبات شفافة وأهواء نرجسية. . ونزوات غير متزنة. .

نعرف هذه الصفات الثلاث من النظر ملياً في انفعالاته الشعرية وجَيَشان عواطفه بقوة وصدق بتعبيرات غير معقدة وغير زائفة ـ سواءً الشعر الذي نظمه ـ وهـو حبيس مجتمعه النجفي ومضـطهدٌ يتمـه وعوزه ـ وفي تلك القصائد إرثٌ محافظ، وأغراضٌ متداولة منذ سقوط دولة الأدب في العراق، وموضوعات تقليدية لا يعدوهـا غير البـدء بالغزل، مذكراً أو مؤنثاً، وغير المديح والرثاء والتهاني بالمناسبات، وفي هذه المرحلة، تبدو (الأنا) واهنة منكمشة، سائرة برهبةٍ في ركاب شعر الفترة، الظالمة، باهتةً، لا سطوع لها ولا حتى رنين، .لكنها صابيةً إلى الانطلاق من العقال إلى فضاء الحرية، والقدرة بالبوح بمكنونها وطرح

تطلعاتها. . وهنا كانت (الأنا) في أدب الشيخ علي الشرقي، فتيل ثورة داخلية تنبعث فـوّارةً من صدره، تقذِف رماد التاريخ وصور الحاضر وآمل المستقبل، وتصبح (الأنا) واسعة يسبح فيها الرماد والصور والآمال، بفردية ذائبة في مجموع. .

* * *

فمن شعر (الأنا) في مرحلة حياة الشاعر الأولى، أقتطفُ الأبيات التالية:

١ ــ في قصيدة (الدمع) قال سنة ١٩١٠:

ما هذه العبراتُ إلّا زفرةً
بردت فعادت مدمعاً مسفوحا

سقطت من الأجفان تفحص في الثرى
حمراً فخلتُ سوادَهنَّ جريحا

(أخشى) عليها أن يصدُّعها الحصى
درراً فأرخي عقدها تسريحا

* * *

٢ ــ وفي سنة ١١٩١ قال مهنئاً صاحباً له بمناسبة عقد قرانه:

قالوا: عشقتَ الغصن قلتُ شقيقَهُ
قالوا: ومَن أصباك..؟ قلتُ شقيقه

قالوا: سباكَ الروض قلتُ وبانُهُ
قالوا: وريقُ الغصنِ، قلتُ وريقُهُ

قـالـوا: آنتسب للطرف، قلتُ أسيـره
قـالـوا: ومـا للثغر..؟ قلتُ عقيقُـهُ

* * *

٣ ـ وفي سنة ١٩١٢ توفي عزيز عليه فقال يـرثيه بقصيـدة تجاوزت الخمسين بيتاً، منها:

أَبكيـكَ للبـدر خلقـاً للصبـا خُلقـا
أبكيكَ للنـاس عِلمـاً للهـدى عَلَمـا

* * *

رثـاكَ شـعـري بـل دمـعي بـلؤلـؤه
فـعـاد منتـشـراً طـوراً ومـنتـظِمـا
بكى لِكفِّـكَ جفنُ الـغيث منهمـراً
وكنتَ تبكيـه في جـدواك منسـجمـا

* * *

٤ ـ وفي سنة ١٩١٣ قدم صاحب له من الحجاز بعد أداء فريضة الحج فقال الشرقي مستبشراً:

أَميـلُ مـع الهـوى وتـميـلُ عـني
ألستَ مع الهوى يـا غصن مائـلْ..؟

* * *

أرى كـبـدي وقـد بـردتْ لـظاهـا
أزال الـحـبُّ أم نـجـح الـعـواذلْ

* * *

رايتَـك في الحجيـج وقـد تسـاووا
تـميّـزكَ الـمـلامـحُ والـمـحـايـلْ

* * *

٥ ـ في سنة ١٩٢١ خطف الموت الفاجع، عروسه ليلة زفافها اليه، وأسرجت شموع الزفة في تشييع العروسة إلى القبر المظلم، فجزع الشاعر جزعاً عارماً، وصبَّ جام غضبه على شمعةِ العرس:

شمعـةَ العـرسِ مـا أجـدتِ التـأسّي
أنـتِ مـوقـودةٌ ويُـطفـأُ عـرسـي

أنـتِ مثـلي مشـبـوبـةُ القـلب لـكـن
من سنـاك المشـؤوم ظلمـة نفـسي

٦ ـ ومن أشعار الحنين، ما أرسله الشاعر من مكة المكرمة إلى أحد أصدقائه في النجف سنة ١٩٢١:

يـا وحشـةَ الخِـلِّ الـذي عـنـكـم صـواه بُـعـادُهُ
مـلَّ الـوسـاد من الهـمـوم ومـلَّ مـنـه وسـادُهُ

* * *

ألَخـيَّ يـا نَفَسَ الـربـيـع إذا دكـت أورادُهُ
كبـدي ومـا كبـدي سـدى جـرح وأنـتَ ضـمـادُهُ

* * *

ذكـرايَ وأنـتَ وإن شـطـت ذكـرى الـغـريـب بـلادُهُ

* * *

وفي مراجعتك ديوان الشاعر تجد كثيراً من شعر (الأنا) في المرحلة الأولى من حياته، وتجدُ أن هذا الشعر وأمثاله، كان نتشراً في العراق كبقيةٍ من شعر أواخر الفترة العباسية الذاوية وتاليتها الفترة المظلمة.. ومثل الشاعر في هذا الشوط كثيرون منهم: محمد سعيد الحبوبي وعبدالباقي العمري وحيدر الحلي وعبدالغفار الأخرس ومحمد حسن كبة، وحسن القيّم وغير هؤلاء..

أما في مرحلة (الأنا) الشرقية الثانية، فقد خرج نظمُ الشاعر عن طوق الطلول والأثافي وديار الأحبة ووصف الخمرة التي لم يذقها، أبداً.. وطفر الشرقي من فوق أسلاك آسار الشكليات القديمة والقصائد المزركشة المجترّة، وتخلّص من قيود المحسّنات اللفظية، التي قيّد بها شعراء قبله وعاصروه، شعرهم وحصروه بين جدران أغراضه القديمة وموضوعاته المكرّرة، وتباهوا وتنابزوا بالمساجلات والمطارحات والتخاميس والتشاطير والمسخيّات، والتحايل في تجنب التنقيط، وحشر الجناس والمخالف.

إن طفرة الشاعر من تلك الحواجز والخنادق كان بعد شعوره بمساويء شعر التخلف والظلمه والرغبة في الحداثة ومسايرة العصر الذي بدأت أساليبه التربوية والثقافيه تسير في مجالات جديدة ليس فيها مجال للاتجاهات التقليدية في التفكير والأدب، ويتّجهُ منها خطُّ النظم والشعر نحو الحياة العامة وتفاعلاتها المستحدثة ونحو إظهار ذات الشاعر او الكاتب أو الفنان ـ والأ[illegible] فيهم لتصبح تعبيراً صادقاً عن عواطف الإنسان الجديد وتصويراً لافكار المواطن الأصيلة، بكل دقّةٍ وأمانة.. كما نرى جلياً في:

١ – تعبير الشرقي عن ذاته و (الأنا) فيه في قصيدة «قفص البلبل» – وتوحي لفظة القفص بالحرمان من حرية الحركة والبوح بالرأي الجاسر المخالف للأعراف السائدة والآراء البائدة.. رمز بها الشرقي لنفسه (الفرات والأنا) ليُسمع الناس آراءه وواقعه الذاتي المؤلم، تغريداً – مفرحاً أو محزناً – حاراً نابعاً من أعماق الشرقي الشاعر.. قال:

أيها البلبلُ المعلّقُ في السجنِ
سلام محبّب الترجيع
لا تقطع بصوتكَ العذب لحناً
كبدي تشتكي من التقطيع
الحبيسانِ أنتَ والقلبُ يا بلـ
ـلُ بغّضتما إليّ ضلوعي
أنا أشكو وأنتَ تشكو وكل
الناس تشكو والبعض شكوى الجميعِ

* * *

أيها البلبل المعلّق في السجن
سلامٌ على رجاءِ الخلاصِ
قفص واحد به أنت مسجو
نٌ وإنّي تعدّدت أقفاصي
من بلادي ومّا بها من بياض
وسوادٍ ومن مطيع وعاص

كـان يـشـدو أبـو نـواس بـبـغـدا
د فـعـادت ولا أبـا نـوّاسِ

* * *

٢ ـ وفي رباعياته (مع البلبل الطليق) انطلاقات للشاعر نحو تقدم الأمة ووحدتها وحرية أبنائها وأرضها، لا يتكيءُ فيها على الرمز والتُقية، إنما يتحدث مع البلبل الطليق من داخله، بذاته و(الأنا) طافحة في حديثه ومناجاته:

معي يـا بلبـلَ الـروضِ إلـى الـذروةِ أو أبـعـدْ
يـريـد الـكـلمُ الـطيّـب أن يـصـعـدَ فـلنـصـعـدْ
(حـدود) الـقـوم تستـهـزيْ بـمـن خـطّط أو حـدّدْ
نـظام يـفـسـد الـصـالـحَ والـراضـي بِـهِ أفـسـدْ

وقد تتفلسف (الأنا) في الشاعر فتعكس أموراً هامة في حياة الإنسان والمجتمع بعرض التضادد والتفسير بالإشارة:

معي يـا بلبـلَ الـروضـة مـن لـطفٍ إلـى لـطف
تـركـنـا الـعـدل لـلأحـلام فَـلنَـدعُ إلـى الـعـطف
أحـالـونـا إلـى الـعـقـل وأنَّ الـعـقـل لا يـكـفـي
غـرائـزنـا قـد إنـدسّـتْ بـمـا نـبـدي ومـا نـخـفـي

* * *

معي يـا بلبـلَ الـروضِ مـن الـقـدّاحِ لـلطلع
نُـحبّي الـطاهـرَ الـطيـبَ بـالـذات وبـالـطبـع

وددتُ الأُذنَ للرؤيا لكي أبصر بالسمع
عسى أن ننظر الوضعَ كما نسمع بالوضع

* * *

٤ ـ وقد اتخّذ الشرقي من الطبيعة مفتاحاً لرؤيته الذاتية (الأنا) وجعل منها رسوماً لتجاربه النفسية. ويذلك ساير الشعراء الرومانسيين، وخالف الشعراء العرب الذين عبّروا عن حبهم وإعجابهم بمظاهر الطبيعة الجميلة، ونظموها شعراً مؤثراً: قال الشرقي:

معي يا بلبل الروضِ من نادٍ إلى نادي
من الغابة للحقل إلى السفح إلى الوادي
ستلقى عالم الأحياء صيّاداً لصيّادِ
وتلقى الوتر الحسّاس محتاجاً لعوّاد

□ □ □

مآخذ وهفوات

كل جواد كبوة، ولكل لسان أو قلم هفوة. .

والشاعر الشرقي، كان جواداً في العلم والأدب، فارساً في النثر والشعر. .

فمن أصالته، التي تؤخذ نتائجها عليه، في النقد الأدبـي، أن في نثره خصائص تقصيه عن النثر الفني، منها: العرض التاريخي المحض، ينعدم فيه العنصر الفني النثري، ويحرم القارىء من جمال النثر الذي يُفقِده العرضُ التاريخي والرقميُّ من حلاوة الإيحاء ورقة الظل وبالأخص حين يُسمد العرض بالألفاظ التي تبهتها الرنَانةُ والطَنانة، وتخرمش أذواق المتأدبين بأظافر مصطلحات نيوتن وداروِن وفرويد وأفلاطون، وتبقيها مجمّدة في مجلة (العِلم) بعنوان (بالأمل نحيا. .) في العدد التاسع من مجلدها الثالث. .

* * *

كانت تلك المقالة في المرحلة الأولى من حياة الشاعر الأدبية المتأثرة بالنهج النثري الموروث. . ثم ينتقل الشيخ الشاعر بنثرِهِ ونظمه إلى الربع الثاني من القرن العشرين إلى حلبة التغيير الآخذ بحياة الأمة وفكرها،

ويرتفع بهما إلى عتبة الفن الحديث الموازن بين الأسلوب والمضمون ويسر التعبير، كما يلاحظ القارىء المتتبع، ذلك التحول في مقالات الشرقي (الألواح الشرقية) في كتابه المطبوع «الأحلام» وفي مجلة الاعتدال سنة ١٩٣٥..

أما ما يؤخذ على شعره، فليس مثل ما يؤخذ على سواه من الشعراء الكبار، كمّا وكيفاً، إنما هي كما قيل (لكل شيء إذا ما تمّ نقصان..).

حين قال في قصيدته (وادي السلام):

خليلي هجساً واختلاساً بخطوكم

فلم تطأوا إلا مراقد رقّاد

* * *

ظهر لنا واضحاً أنه بمعناه ومبناه، ترديد لبيت مشهور للشاعر أبي العلاء المعري:

خَفِّفِ الوطءَ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

* * *

وهو ـ أي بيت الشرقي ـ أوهن تركيباً ـ وأثقل وقعاً على السمع. وسبق الشرقيَّ، الشاعر الخيام، إلى هذا المعنى، كما ترجم الشاعر النجفي أحمد الصافي:

لا تَطَأْ ويحكَ النبات احتقارا

فهو نامٍ من مزهر الخدِ نَضْرِ

* * *

وقد تخلّف الشرقي عن كلا الشاعرين (المعري والخيام) في تنضيد ألفاظ هذه الفكرة الوعظية الفلسفية لأن كلمتي (هجساً واختلاساً) خاليتان من الجرس الشعري الناغم:

ونقل الشرقي نقلاً مباشراً حرفياً من الخيام ما ترجمته:

فكّرتْ في الدين أقوام كما
حار بين الشكِ والقطع فريقْ
فإذا الهاتف يدعوهم أيا
بُلهُ، لا هذا ولا ذاك الطريق

يَدٌ لي في جام وأخرى بمصحف
وطوراً أنا الجاني وطوراً أنا العفُّ
أعيش ومالي تحت ذا الأفقِ مبدأ
فلا مسلم محضٌ ولا كافر صرفْ

* * *

فقال الشرقي:

حارَ المذهب والدين من الصحب فريق
بين شكٍ ويقينٍ راكسٍ لا يستفيق
يا شقيقي، همس البلبل في أذن الشقيق
أيها التائه لا هذا ولا ذاك الطريق

* * *

في يدٍ مصحف وخمرٌ بأخرى

بيـن هـذا وذاك طـور وطـوراً

أكـثـر الـنـاس، هـل تـأمـلتَ فـي الـنـاس

فـهـم يـمـزجـون ديـنـاً وكـفـرا

* * *

ومَن منّا، لا يخنقه السأم ولا يضجره الملل وهو يقرأ، أو يسمع، تكراراً لا رغبة له فيه ولا يهزّ فيه عاطفةً، أو يحرك إحساساً، حين أو بعد أن يقرأ أو يسمع هذه الأبيات الشرقية:

(الكهـربـاء) لـعـلعـت نـجـومُـهـا

في الشـاطئينِ و (سنـا البـدرِ) انتشرْ

فكم (ثـريّـا) نـوّرت (عـنقـودهـا)

وكم (عمـود) بـالمصـابيـح اعتمـرْ

وكـل قـصـر أطـلعـت كـوّاتُـهُ

(كـواكب) الأرض و (أقمـار) البشـر

تـزهـو قصـورُ (النـور) حـول دجلةَ

قـد سطعت (وضّـاءة) حتى الحجر

تـنـوّعـت فـيـهـا أكـاكيـلُ الهـنـا

مـن (كـهـربـاء) وزهـور وشَـعَـر

هـذا إطـار (بـالمصـابيـح) زهـا

وذاك بـهـوٌ بـالـريـاحيـنِ ازدهـر

* * *

ولا يُغفر للشيخ الشاعر هذا التصنع الواهي بأنه تعبير عن إهمال الحكومة مدن العراق واهتمامها بالعاصمة بغداد فقط، ولا يغفرُ له القارىء العربي غير القاموسي استعماله كلمات وألفاظ (بائدة) أو مستقلة مضنية أو متجانسة في زمن تردى فيه الجناسُ والحذلقة اللغوية.. ومن هذه الألفاظ، لا على الحصر: القراع ــ الخريت ــ الأثافي ــ الوزايا ــ القراب ــ الرديع ــ القوط ــ الأرام ــ البشام ــ الجمان ــ السربوت وطلعت وطالعت في البيت:

والشمس في كلّةِ الإشراق قد (طَلَعت)

(فطالعت) شمس خدّيهِ من الكل

* * *

والجناس بين الفعل (طَلَّ = سفك) والاسم (طلّ بمعنى قطرات الندى، غير مستساغ تماماً في البيت:

طَلَّ دمي مذ بدا لعيني

في روض خدّيه لؤلؤ الطَلِ

* * *

والطباق، المهجور في أيامنا احتفى به الشرقي كثيراً فقد طابق بين مفترقات المعاني، متقاربات الجرس أو اللفظ، دون مبرّر أو ضرورة، إنما للتلّهي بالألفاظ العربية والمعاني ومرونتها.. ولأضرب لهذا أمثالاً من شعره:

١ ــ ولما تطالعك النواظر في الدجى

ولكنما قد (طالعتك) (النواظر)

٢ ـ أنت من المهاة بكل وصف
إلى أن رحت في جهل المهاة

* * *

٣ ـ بك الحِمام (ابتدى) أم فيك قد (ختما)
فَعَمَّ أقطار أرضٍ رزؤه وسما

* * *

واستعمل الشرقي ألفاظاً وتراكيب تفتقر إلى العاطفة الحارة المتوهجة، وتجعل (الشعر) نثراً خطابياً أو خطياً، يجيء في الرسائل وعلى المنابر السلطانية، لا تصوير فنياً شعرياً فيها ولا إيحاء بوجود خير أو بقدوم شر، بل تكثر فيها الألفاظُ الغثة، السمجة، الشائعة بين العامة الجهلة، والتعابيرُ العامية التي يعتذر عن ترديدها بشعره: بكونها مشتقات من اللغة العربية الفصحى، نحتها التصحيف والتحريف.. !

فَشَكَّ اللّه من جراب نفخناه   فلم نستفدْ بنفخِ الجراب

* * *

أكلاً نفسه و(يعلس)   بإلقاء أذني تلميذه المتَخمِ

□ □ □

الخاتمــة

أعتذر عن التوسّع في دائرة أدب الشيخ علي الشرقي والتعرض لكل أطوالِ شعره وعرضانه، لأن مثل هذا الكتاب حجمًا ومنهجاً، ليس أهلاً وكافياً لما يلزم عند دراسة تفصيلية عن شاعر عاصر مراحل ثلاثاً من تاريخ العراق: العثمانية والملكية والجمهورية، وتفاعل مع أحداث وطنه وأمته وتعداهما إلى الأحداث العالمية في شرق الدنيا وغربها. .

وأسأل القارىء أن يـرجع إلى آثـار الشاعـر النثريـة (العرب والعـراق ــ الأحلام ــ تحقيق ديـوان ابراهيم الـطباطبـائي ــ وذكرى السعدون) وهي كتب مطبـوعة ميسـورة، وإلى أبحاثـه المنشورة في الصحف والمجلات في تاريخ منطقة نهر الفرات وأحوالها الاجتماعية، وفي تاريخ اليزيدية، وفي النوادي العراقية وفي الألواح التاريخية.

وأدعو القارىء المستزيد إلى قراءة آثار الشـاعر الشعـرية من القصائد والرباعيات والموشحات المنشورة في ديوانيه «عواطف وعواصف» و (ديوان علي الشرقي) الذي حققه وجمعه الأديبان الفاضلانِ ابراهيم الوائلي وموسى الكرباسي ــ عام ١٩٧٩، ليكمـل القارىء المستـزيد ما اقتصرتُ على ذكرِهِ من أبيـات قليلة من قصائـده ومن ربـاعيـاته وموشحاته. .

وأرجو من القارىء الدارس أن يتّفق معي على أن الشرقي شارك مشاركة غير منكورة وساهم مساهمة مذكورة في انتشال الأدب في العراق من رتابة الخمول الناعس وخدر الأعوام الطويلة من التخلّف والدمس، وأعان الشعراء المجددين ـ أمثال الرصافي ومحمد رضا الشبيبي والزهاوي وغيرهم ـ في نقل الأدب ـ نثراً وشعراً ـ إلى مجالاته الوارفة وقوة تعبيراته الصادقة عن ذات العراقي المتطلعة إلى التنصل عن واقع المجتمع المتردي في مهاوي الجهالة ومجانقة التطور الثقافي والمدني الذي عمَّ أكثر أجزاء الدنيا..

وقد ظهر لي، كما ظهر لغيري من دارسي آدابنا القديمة والحديثة أن بعض الشعراء العرب المعاصرين ـ ومنهم شاعرنا الشرقي، قد انسجموا في نتاجهم النثري والشعري، مع طبيعة الوطن وأبنائه بتاريخهم الماضي وحاضرهم وبآمالهم وطموحهم، قبل أكثر من ثلثي القرن العشرين..

لقد جدّد أولئك الشامخون في أدبنا المعاصر ومنهم الشرقي في فكر الأديب وفي صوغ الشعر، حين أنقذوا القصيدة من الروي الواحد ونظموا الموشحات والرباعيات، وأهملوا، إلى حدٍ ما، ما عرفه شعرنا من تقليد وترجيع في حدود محدّدة بثوايا جامدة مغرورة في سباخ فترة التشرنق والظلام والاستعباد، والوهن الذي أصاب الأمة في جميع أجزائها وأجنحتها..

وقد بزّ الشرقي زملاءه بما طوّر به الموشحات العربية القديمة الأندلسية والبغدادية، كما أنه تفوق بقلة التصنع والمجاراة والتقليد في المرحلةِ الأولى من حياته الأدبية، التي نأى فيها عن سلوك مسالك الأدباء القدامى في النظم والنثر، في طرق أوزان الشعر وأغراضه وتقاليده المحافظة على هلهلته وتزويقه وزُلفاهُ. وتوجيه تهمة المس بذات «العمودية» وقداسة «القافية» وزندقة التجديد والحداثة في النثر والنظم..

وكان من علائم شعر الشرقي المتجدد المجدّد شيوعُ (الأنا) الذاتية فيه، استخداماً في نقد أخطاء مستفحلة، «ضارة» في سلوك الفرد، وحالات المجتمع وأوضاره، وفساد الرأي في السياسة والنضال الوطني. وخالط هذا الشيوع الذاتي نزعات إنسانية شملت قضايا الإنسان العراقي والعربي، بل الإنسان في أرض الله الواسعة في الدنيا القديمة في آسيا وأوروبة وأفريقية، أو العالم الجديد في الأمريكتين، دون إهمال منه لحياةِ المرأة والمدرسة والقرية والفلاح والعامل في الوطن . ولم ينس أطفال الوطن والدعوة للعناية القصوى بصحتهم وتربيتهم التربية الموائمة للعصر ومتطلباته..

وللشرقي في كل هذه الدعوات والأفكار والحثِ أسلوب بارع، بنظرات فكرية صائبة، وصياغة فنية ـ تشوبها أحياناً، ألفاظ أوهنت شاعريته، وأبهتت نصاعة براعته، عند استعمالها في شعر مرحلتيه الأدبيتين..

ويتردد، أمامي، الآن، سؤال يهمُّ الدارس طرحه، وتهمني الإجابة عنه:

ـ لِمَ لم يُعَرفْ كشاعر وناثر وطني قومي إنساني، وشخصيته ثورية، في أرجاء الوطن العربي، كما اشتهر ونال الاهتمام كل من الزهاوي والرصافي والصافي والشبيبي وغير هؤلاء من أعلام الشعر ونباريس الأدب..؟

وليس في جعبتي جواب على هذا التساؤل الحق غير الاتكاء على الظروف السياسية والاجتماعية التي أطرّت حياة الشرقي، بعد ثورة العشرين إلى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.. أرغمت أشعاره على التقرفص في

النجف وبغداد والعراق، وبعض حواضر العراق، والانزواء في زوايا بعض الكتب الأدبية والصحف العراقية، ومجلة «العرفان» الصيداوية.. ومجلة (الآمال) البيروتية، ومجلة الثقافة القاهرية.. وذكريات الأديب العراقي الأستاذ جعفر الخليلي وتواريخ الشيخ علي الخاقاني، ومذكرات ابن خاله الشاعر محمد مهدي الجواهري، وكل هذه المصادر ضيقة البحث في أدب الشاعر الشرقي وحياته، وظروفه المتقلبة التي مرّ بها وأحاطت به، عِبرَ جسرِ حياته الذي امتدَّ من عام ١٨٩٢ ــ إلى عام ١٩٦٤ ــ حافلاً بحلاوة العيش ومرارة اليتم، وضحالة وفاء الأهل والأصحاب، مختتمًا حياة الشاعر بعد مرض السرطان الخبيث، دون أن يتردد صدى أيامه وآدابه وأشعاره وتقديم الخدمات للغير، ودون أن ينبري زملاؤه الشعراء إلى الاحتفال بمصيبة الشعر بفقد علم من أعلام القصيدة والموشح والرباعية، وبندقية من بنادق ثورة العشرين، ومقلاعٍ لعَفَنِ الماضي السحيق ومخلفات الفترة المظلمة، وزحف الدبا الاستعماري على مرابع الرافدين، ونداءِ التحرر والحداثة وتطهير المجتمع العربي والأقطار العربية من الطليان والانجليز والفرنجة والجرمان ــ الغزاة الطامعين في المنطقة العربية والاستيلاء على أرضها والاستحواذ على ما تحت أرضها من نفوط وكنوز..

.. ونشر خبر وفاة الشيخ الشاعر الجليل في الجرائد اليومية، ببضع كلمات يدفع الأهل أو الأصحاب ثمن نشره مقدراً بالسطور الصغيرة.. وكأنه لم يكن ــ على أقلِ تقييم ــ أوّلَ المجدّدين في الشعر العراقي المعاصر..

أقول هذا، وآمَلُ أن ينفعني أهلُ الأدب فيما فاتني أو أُنسيتُهُ من قراءات وسماع ودراسات حول الشاعر علي الشرقي..

المراجع

(١) ديوان علي الشرقي : ابراهيم الوائلي وموسى الكرباسي .
(٢) ديوان عواطف وعواصف ـ علي الشرقي .
(٣) ماضي النجف وحاضرها ـ جعفر باقر .
(٤) ثورة العشرين في الشعر العراقي : الوائلي
(٥) الألواح التاريخية ـ علي الشرقي
(٦) شعراء الغري ـ علي الخاقاني .
(٧) هكذا عرفتهم ـ جعفر الخليلي .
(٨) الشيخ علي الشرقي ـ عبدالحسين مهدي .
(٩) على هامش الثورة العراقية ـ فراتي .
(١٠) العرب والعراق ـ علي الشرقي .
(١١) رباعيات الخيام ـ أحمد الصافي النجفي .
(١٢) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث ـ د. رؤوف الواعظ .
(١٣) مجلات وجرائد عراقية .
(١٤) صحف عربية : مصرية ولبنانية .

الفهرس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٦٥ لسنة ١٩٨٥

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب ٥٤٦٠ - ١١ بيروت



مطبعة الأخضر - خالد البيرتي - بغداد

السعر ـر١ دينار

صمم الغلاف : لبث متي

مطبعة الانتصار - خالد البراوي - بغداد

المكتبة العالمية
بغداد - شارع السعدون
هاتف ٨٨٨٩٣٥٢